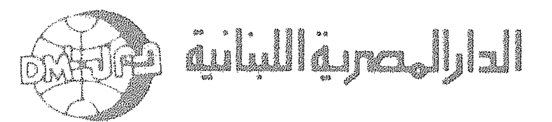
التوكل على الله

والأخذ بالأسباب

لشيخ الإسلام
أحمد بن عبد الحليم بن تيمية

29

أعده وخرج أحاديثه وعلق عليه
أبو المجد حرك




التوكل على الله
والأخذ بالأسباب

الطبعة الأولى

١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م



الدار المصرية اللبنانية طباعة • نشر • توزيع
١٦ شارع عبد الخالق ثروت - تليفون ٣٩٢٣٥٢٥ - ٣٩٣٦٧٤٣ - فاكس ٣٩٠٩٦١٨ - برقياً: دار شادو - ص.ب: ٢٠٢٢ - القاهرة

AL-DAR AL-MASRIAH AL-LUBNANIAH PRINTING — PUBLISHING — DISTRIBUTION
16 ABD EL KHALEK SARWAT St. P.O.Box 2022-Cairo-Egypt PHONE: 3936743-3923525 FAX: 3909618 CABLE DARSHADO

التوكل على الله والأخذ بالأسباب

لشيخ الإسلام
أحمد بن عبد الحليم بن تيمية
« ٦٦١ - ٧٢٨ هـ »

أعده وخرج أحاديثه وعلق عليه
أبو المجد حرك

الناشر
الدار المصرية اللبنانية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن
ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ

صدق الله العظيم



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمــة

التوكل على الله قيمة إسلامية مظلومة .. يظلمها الناس بسوء فهمهم لها خروجا بها عن معناها الحقيقى .. وقد حدث هذا منذ قرون عديدة – بل منذ عهد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وإلى الآن .

ولقد كان حرصه – عليه الصلاة والسلام – على تصحيح فهم المسلمين لحقيقة التوكل كبيرا ، ومن أشهر الروايات فى ذلك مانقله أنس بن مالك – رضى الله عنه – عن الأعرابى الذى أهمل عقال ناقته – توكلاً كما زعم – حتى ضاعت ، فقال له رسول الله – صلى الله عليه وسلم –:« **اعقلها وتوكل** »(1).

وهذا الكتاب الذى جمعناه من أقوال شيخ الإسلام أحمد بن تيمية – رحمه الله – من أنفس ماقيل فى حقيقة التوكل ، وفى عدم تعارضه البتة مع ضرورة السعى وطلب الرزق والأخذ بالأسباب ، بل لقد نجح الشيخ – رحمه الله وطيب مثواه – فى إيضاح فكرة جوهرية عظيمة عندما أثبت بالأدلة النقلية والعقلية أن التوكل على الله لايستقيم بحال بدون طاعته – سبحانه – ولا طاعة بغير التزام ما أمر به من الأخذ بالأسباب .

---

(1) رواه الترمذى ، وحسنه الألبانى فى (صحيح الجامع الصغير) رقم ١٠٦٨ ج ١/ ٢٤٢ .

وكان مصدرنا فيما جمعناه هنا (مجموع فتاوى شيخ الإسلام : أحمد بن تيمية) التى جمعها المرحوم عبد الرحمن بن محمد بن قاسم ، وتمت طباعتها بمكتبة (المعارف) بالرباط فى المغرب ، فى سبع وثلاثين مجلدا على نفقة المغفور له خالد ابن عبد العزيز آل سعود ملك السعودية السابق .

ولقد مَنَّ الله علينا حين شرعنا فى هذا العمل إذ وفقنا إلى تنسيق ماجمعناه وتبويبه فى فصول متجانسة بعد أن كان متناثرا فى المجلدات المأخوذ منها ، وقد قمنا - بتوفيق من الله وحمده - بتخريج الأحاديث العديدة به ، وكذا الآيات البينات من الكتاب الكريم ، وتقديم تراجم مختصرة لجمهور الأعلام الوارد ذكرهم فى ثنايا الكتاب ، وذيلنا بإعداد فهارس مرتبة للأحاديث الواردة ، وللأعلام المترجم لها .

وقد أثبتنا بجوار كل فقرة رقم المجلد والصفحات المنقول عنها تيسيرا على من يرغب فى العودة إليها للاستزادة والتوثيق .

أدعو الله - سبحانه وتعالى - أن ينفع بهذا العمل ، وأن يجعله فى صحائف أعمالنا الصالحة يوم العرض عليه ، والحمد لله رب العالمين .

أبو المجد حرك

أولاً : فى وجوب السعى وطلب الرزق

* الفتوى الأولى (٥٢٤ - ٥٣٩/٨) :

سئل شيخ الإسلام أحمد بن تيمية - قدس الله روحه - عما قاله أبو حامد الغزّالى [(١)]- فى كتابه المعروف (بمنهاج العابدين) فى زاد الآخرة من العقبة الرابعة : وهى العوارض ، بعد كلام تقدم فى التوكل بأن الرزق مضمون - قال : فإن قيل : هل يلزم العبد طلب الرزق بحال ؟ فاعلم أن الرزق المضمون هو الغذاء والقوام ، فلا يمكن طلبه إذ هو شىء من فعل الله بالعبد ، كالحياة والموت ، لايقدر العبد على تحصيله ولادفعه .

وأما المقسوم [(٢)] من الأسباب فلا يلزم العبدَ طلبُه ؛ إذ لا حاجة للعبد إلى ذلك ، إنما حاجته إلى المضمون وهو من الله وفى ضمان الله .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ [(٣)] المراد به العلم والثواب وقيل : بل هو رخصة إذ هو أمر وارد بعد الحظر ، فيكون بمعنى الإباحة ، لابمعنى الإيجاب والإلزام .

---

(١) أبو حامد الغزّالى : محمد بن محمد بن محمد الغزّالى الطوسى .. من طوس بخراسان ، فيلسوف متصوف لقبوه بحجة الإسلام ، تقرب مصنفاته من المائتين عددا ، ومن أشهرها (إحياء علوم الدين) و(تهافت الفلاسفة) و(المنقذ من الضلال) وغيرها كثير .. ولد - رحمه الله - بطوس (٤٥٠ هـ/١٠٥٨ م) ومات فيها (٥٠٥ هـ/١١١١ م) [انظر ترجمته فى : وفيات الأعيان ٤٦٣/١ وطبقات الشافعية ١٠١/٤ ، وشذرات الذهب ١٠/٤] الأعلام للزركلى ٢٢/٧

(٢) كانت (وما المقسوم) فصوبناها حسب مقتضى السياق وراجعناها على نسخة (منهاج العابدين) المذكور .

(٣) من الاية ١٠ من سورة الجمعة : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِى الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللهِ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ . صدق الله العظيم .

فإن قيل : لكن هذا الرزق المضمون له أسباب ، هل يلزم منا طلب الأسباب ؟ قيل : لايلزم منك طلب ذلك إذ لا حاجة بالعبد إليه ، إذ الله — سبحانه — يفعل بالسبب ، وبغير السبب ، فمن أين يلزمنا طلب السبب ؟ ثم إن الله ضمن ضمانا مطلقا من غير شرط الطلب والكسب ، قال — تعالى — : ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ (١).

ثم كيف يصح أن يأمر العبد بطلب مالا يعرف مكانه فيطلبه ؟! إذ لا يعرف أى سبب منها رزقه [يتناوله لا عرف الذى صير] (٢)وتربيته لا غير ، فالواحد منا لايعرف ذلك السبب بعينه ، من أين حصل له ؟ فلا يصح تكليفه ، فتأمل — راشدا — فإنه بيّن . ثم حسبك أن الأنبياء — صلوات الله وسلامه عليهم — والأولياء المتوكلين لم يطلبوا الرزق فى الأكثر والأعم ، وتجردوا للعبادة ، وبإجماع أنهم لم يكونوا تاركين لأمر الله تعالى ، ولا عاصين له فى ذلك ، فليس لك أن تطلب الرزق وأسبابه بأمر لازم للعبد .

فما الفرق بين هذا الكلام من هذا الإمام والمنصوص عليه فى كتب الأئمة : كالفقه وغيره ؟ وهو أن العبد يجب عليه طلب الرزق وطلب سببه — وأبلغ من ذلك أن العبد لو احتاج إلى الرزق ووجده عند غيره فاضلاً عنه وجب عليه طلبه منه ، فإن منعه قهره ، وإن قتله . فهل هذا الذى نص عليه فى المنهاج يختص بأحد دون أحد ؟ فأوضحوا لنا ما أشكل علينا من تناقض الكلامين ، مثابين ، مأجورين ، وابسطوا لنا القول .

فأجاب — رضى الله عنه — :

الحمد لله رب العالمين : هذا الذى ذكره أبو حامد قد ذهب إليه طائفة من الناس ولكن أئمة المسلمين وجمهورهم على خلاف هذا ، وأن الكسب يكون

---

(١) جزء من الآية : ٦ من سورة هود .

(٢) اضطراب فى السياق صوابه : [الذى يتناوله لاغير ، والذى يصير سبب غدائه] هكذا وجدناه فى (منهاج العابدين) للغزالى طبعة مصطفى الحلبى بمصر — رمضان ٣٣٧ هـ — صفحة ٤٩ وماعدا ذلك من اختلافات يسيرة ضربنا عنها صفحا لعدم تأثيرها على المعنى أو سلامة السياق .

واجبا تارة ، ومستحبا تارة، ومكروها تارة ، ومباحا تارة ، ومحرما تارة فلا يجوز إطلاق القول بأنه لم يكن منه شيء واجب ، كما أنه لايجوز إطلاق القول بأنه ليس منه شيء محرم .

والسبب الذى أمر العبد به أمر إيجاب أو أمر استحباب : هو عبادة الله وطاعته له ولرسوله . والله فرض على العباد أن يعبدوه ويتوكلوا عليه . كما قال – تعالى – : ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ (1) وقال ﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩ ﴾ (2) وقال : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ (3) .

والتقوى تجمع فعل ما أمر الله به وترك مانهى الله عنه . ويروى عن أبى ذر (4) عن النبى – صلى الله عليه وسلم – أنه قال : « يَا أَبَاذَرٍّ ! لَوْ عَمِلَ النَّاسُ كُلُّهُمْ بِهَذِهِ الْآيَةِ لَوَسِعَتْهُم » (5) .

ولهذا قال بعض السلف : ما احتاج تقى قط . يقول : إن الله ضمن للمتقين أن يجعل لهم مخرجا مما يضيق على الناس ، وأن يرزقهم من حيث لايحتسبون ؛ فيدفع عنهم مايضرهم ويجلب لهم مايحتاجون إليه . فإذا لم يحصل ذلك دل على أن

---

(1) جزء من الآية : ١٢٣ من سورة هود .

(2) الآيتان : ٨ ، ٩ من سورة المزمل .

(3) جزء من الآيتين ٢ ، ٣ من سورة الطلاق .

(4) هو الصحابى الجليل : أبو ذر الغفارى ، واسمه جندب بن جنادة بن سفيان بن عبيد ، من غفار ، وإن كان فى اسمه واسم أبيه خلاف ، من أوائل المسلمين إسلاما ، يقال : كان خامس المسلمين اشتهر بالصدق والورع والكرم ، فلما مات لم يكن فى داره مايكفن به ، وهو أول من حيًّا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بتحية الإسلام ، وكان لمعاوية وعثمان مواقف معه بسبب تحريضه الفقراء على مشاركة الأغنياء فى أموالهم ، حتى نفاه عثمان إلى الربدة من قرى المدينة ، حيث توفى سنة ٣٢ هجرية (٦٥٣ م) روى له البخارى ومسلم ٢٨١ حديثا [انظر ترجمته فى : طبقات ابن سعد ١٦١/٤ – ١٧٥ ، والإصابة ٦٠/٧ ، وصفة الصفوة ٢٣٨/١ ، وحلية الأولياء ١٥٦/١] الأعلام للزركلى ١٤٠/٢

(5) رواه أحمد والنسائى وابن حبان والحاكم وابن ماجه والدارمى ، وضعفه الألبانى فى (ضعيف الجامع الصغير وزيادته) حديث رقم ٦٣٨٧ ج ٩٧/٣ وقال فى تخريجه لأحاديث (مشكاة المصابيح) رقم ٥٣٠٦ ج ١٤٦٠/٣ : إسناده منقطع .

فى التقوى خللاً ، فليستغفر الله وليتب إليه ، ولهذا جاء فى الحديث المرفوع إلى النبى – صلى الله عليه وسلم – الذى رواه الترمذى [1] أنه قال : « **مَنْ أَكْثَرَ الاسْتِغْفَارَ جَعَلَ الله لَهُ مِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجاً ، وَمِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَّخْرَجاً ، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ** » [2] .

و(المقصود) : أن الله لم يأمر بالتوكل فقط ، بل أمر مع التوكل بعبادته وتقواه التى تتضمن فعل ما أمر ، وترك ماحذَّر ، فمن ظن أنه يرضى ربه بالتوكل بدون فعل ما أمر به كان ضالاً ، كما أن من ظن أنه يقوم بما يُرْضِى الله عليه دون التوكل كان ضالاً ، بل فعل العبادة التى أمر الله بها فرض .

وإذا أطلق لفظ العبادة دخل فيها التوكل ، وإذا قرن أحدهما بالآخر كان للتوكل اسم يخصه ؛ كما فى نظائر ذلك مثل التقوى وطاعة الرسول ؛ فإن (التقوى) إذا أطلقت دخل فيها طاعة الرسول ، وقد يعطف أحدهما على الآخر كقول نوح – عليه السلام – ﴿ **أَعْبُدُواْ ٱللَّهَ** ﴾ [3] وكذلك قوله : ﴿ **ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا** ﴾ [4] وأمثال ذلك .

وقد جمع الله بين عبادته والتوكل عليه فى مواضع ، كقوله تعالى : ﴿ **قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ** ﴾ [5] وقول شعيب : ﴿ **عَلَيْهِ**

(١) هو أبو عيسى : محمد بن عيسى بن سورة بن موسى السلمى البوغى الترمذى ، نسبة إلى أهل ترمذ (على نهر جيحون) من أئمة علماء الحديث وحفاظه ، تلميذ البخارى ، وله تصانيف كثيرة أشهرها (الجامع الكبير) أو (صحيح الترمذى) و(الشمائل النبوية) و(العلل) فى الحديث .. عاش فيما بين (٢٠٩ هـ/٨٢٤ م) و(٢٧٩ هـ/٨٩٢ م) [انظر ترجمته فى : تهذيب التهذيب ٣٨٧/٩ ، ونكت الهميان ٢٦٤ ، وأنساب السمعانى ٩٥ ، وتذكرة الحفاظ ١٨٧/٢] الأعلام للزركلى ٣٢٢/٦ .

(٢) رواه أحمد والحاكم عن ابن عباس ، وضعفه الألبانى فى (ضعيف الجامع الصغير) برقم ٥٤٨٠ ج ١٧٦/٣ والحديث فى (كنز العمال) برقم ٢٠٦٩ ج ٤٧٦/١ وله رواية أخرى بلفظ : (وَمَنْ لَزِمَ الاسْتِغْفَارَ) رواه أبو داود وابن ماجه عن ابن عباس وضعفه الألبانى أيضا فى (ضعيف الجامع الصغير) برقم ٥٨٤١ ج ٢٤٨/٣ وقال فى تخريجه وسنده ضعيف ؛ الحكم بن مصعب : مجهول كما قال الحافظ فى التقريب (انظر سلسلة الأحاديث الضعيفة) حديث رقم ٧٠٥ ج ١٤٢/٢ و(كنز العمال) رقم ٢٠٨٣ ج ٤٧٨/١ .

(٣) جزء من الآية : ٣ من سورة نوح .

(٤) جزء من الآية : ٧٠ من سورة الأحزاب .

(٥) جزء من الآية : ٣٠ من سورة الرعد .

﴿ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [1] فإن الإنابة إلى الله والمتاب : هو الرجوع إليه بعبادته وطاعته وطاعة رسوله ، والعبد لايكون مطيعا لله ورسوله – فضلاً أن يكون من خواص أوليائه المتقين – إلا بفعل ما أمر به وترك مانهى عنه ، ويدخل فى ذلك التوكل .

وأما من ظن أن التوكل يغنى عن الأسباب المأمور بها فهو ضالٌّ ، وهذا كمن ظن أنه يتوكل على ماقُدِّرَ عليه من السعادة والشقاوة بدون أن يفعل ما أمره الله .

وهذه (المسالة) مما سئل عنها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كما فى الصحيحين عنه – صلى الله عليه وسلم – قال : « **مَا مِنكُمْ مِنْ أَحَدٍ إلا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ** » فقيل : يارسول الله : **أَفَلَا نَدَعُ الْعَمَلَ وَنَتَّكِلُ عَلَى الْكِتَابِ** ؟ فقال : « **لَا اعْمَلُوا ، فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ** » [2] وكذلك فى الصحيحين عنه أنه قيل له : « **أَرَأَيْتَ مَايَعْمَلُ النَّاسُ فِيهِ وَيَكْدَحُونَ ، أَفِيمَا جَفَّتِ الْأَقْلَامُ وَطُوِيَتِ الصُّحُفُ** ؟ » و لما قيل له : **أَفَلَا نَتَّكِلُ عَلَى الْكِتَابِ** ؟ قال : « **لَا اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ** » [3] .

وبين – صلى الله عليه وسلم – أن الأسباب المخلوقة والمشروعة هى من القدر ، فقيل له : « **أَرَأَيْتَ رُقًى نَسْتَرْقِي بِهَا ؟ وَتُقًى نَتَّقِي بِهَا ؟ وَأَدْوِيَةً نَتَدَاوَى بِهَا ، هَلْ تَرُدُّ مِنْ قَدَرِ اللهِ شَيْئاً** ؟ فقال : **هِيَ مِنْ قَدَرِ اللهِ** » [4]

---

(١) جزء من الآية : ٨٨ من سورة هود .

(٢) رواه أحمد والشيخان ، وأصحاب السنن الأربعة : عن على ، وهو هنا بتصرف بسيط فى الألفاظ . انظر نص الحديث فى (فتح البارى) كتاب القدر ٦٦٠٥ ج ٥٠٣/١١ ، و(صحيح مسلم) كتاب القدر ٦ ج ٦/٨ .. والحديث فى (صحيح الجامع الصغير) للألبانى برقم ٥٧٩٤ ج ١٠٠٩/٢ وفى (مشكاة المصابيح) للتبريزى بتحقيق الألبانى رقم ٨٥ ج ٣١/١ وفى (كنز العمال) برقمى ٥٨٠ ج ١٢٢/١ و١٥٥٥ ج ٣٤٣/١ وفى (مختصر صحيح مسلم) للمنذرى بتحقيق الألبانى رقم ١٨٤٤ ص ٤٨٧ .

(٣) حديث صحيح : رواه الشيخان من حديث جابر بن عبدالله ، و عند مسلم أن السائل كان سراقة بن مالك بن جعشم ، انظر (كتاب القدر) حديث رقم ٨ ج ٨/٨ وأخرجه ابن ماجه من حديث سراقة نفسه ، والترمذى من حديث ابن عمر وغيرهم وهو فى (صحيح البخارى) من حديث عمران بن الحصين انظر (فتح البارى) كتاب القدر ، حديث رقم ٦٥٩٦ ج ٤٩٩/١١ .

(٤) رواه ابن ماجه والترمذى وأحمد ، وضعفه الألبانى فى (التعليقات الرضية على الروضة الندية) (٢٨٨/٢) انظر (ضعيف سنن ابن ماجه) حديث رقم ٧٤٩ ص ٢٧٨

فالالتفات إلى الأسباب شرك فى التوحيد ، ومحو الأسباب أن تكون أسبابا نقص فى العقل ، والإعراض عن الأسباب المأمور بها قدح فى الشرع ، فعلى العبد أن يكون قلبه معتمدا على الله ، لا على سبب من الأسباب ، والله ييسر له من الأسباب مايصلحه فى الدنيا والآخرة فإن كانت الأسباب مقدورة له وهو مأمور بها فَعَلَهَا مع التوكل على الله ، كما يؤدى الفرائض ، وكما يجاهد العدوَّ ، ويحمل السلاح ، ويلبس جنة الحرب ، ولايكتفى فى دفع العدو على مجرد توكله بدون أن يفعل ما أمر به من الجهاد ، ومن ترك الأسباب المأمور بها فهو عاجز مفرط مذموم .

وفى صحيح مسلم [1] عن أبى هريرة [2] - رضى الله عنه - عن النبى - صلى الله عليه وسلم -

قال : « **الْمُؤْمِنُ الْقَوِىُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ ، وَفِى كُلٍّ خَيْرٌ ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجِزَنَّ ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَىْءٌ فَلَا تَقُلْ : لَوْ أَنِّى فَعَلْتُ لَكَانَ كَذَا وَكَذَا ، وَلَكِنْ قُلْ : قَدَّرَ اللهُ وَمَاشَاءَ فَعَلَ ؛ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ** » [3] .

وفى سنن أبى داود [4] أن رجلين تحاكما إلى النبى - صلى الله عليه وسلم -

---

(١) هو الإمام الحافظ أبو الحسين : مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيرى النيسابورى ، من أئمة الحديث ، ولد فى نيسابور (٢٠٤ هـ - ٨٢٠ م) وتوفى فيها (٢٦١ هـ - ٨٧٥ م) من أشهر مصنفاته (صحيح مسلم) به ١٢٠٠٠ حديث كتبها فى خمس عشرة سنة [انظر ترجمته فى تذكرة الحفاظ ١٥٠/٢ ، وتهذيب التهذيب ١٢٦/١٠ ، وابن خلكان ٩١/٢ ، والبداية والنهاية ٣٣/١١ ، وطبقات الحنابلة ٣٣٧/١] الأعلام للزركلى ٢٢١/٧ .

(٢) هو عبد الرحمن بن صخر الدوسى ، المعروف بأبى هريرة : من أكثر الصحابة رواية للحديث وحفظا له قدم المدينة فأسلم فى السنة السابعة للهجرة ، ولزم النبى - صلى الله عليه وسلم - روى عنه ٥٣٧٤ حديثا نقلها عنه أكثر من ٨٠٠ رجل من الصحابة والتابعين ، عُمِّر طويلا (٢١ ق .هـ/٦٠٢ م -٥٩ هـ/٦٧٩ م) [انظر ترجمته فى حلية الأولياء ٣٧٦/١ ، وصفة الصفوة ٢٨٥/١] الأعلام للزركلى ٣٠٨/٣ .

(٣) رواه أحمد ، ومسلم ، وابن ماجه : عن أبى هريرة ، وحسنه الألبانى فى (صحيح الجامع الصغير) حديث رقم ٦٦٥٠ ج ١١٢٩/٢

(٤) هو أبو داود : سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير الأزدى السجستانى (٢٠٢ هـ/٨١٧ م- ٢٧٥ هـ/٨٨٩ م) من أهل الحديث ، له (السنن) يحتوى على ٤٨٠٠ حديثا منتقاة من أصل ٥٠٠٠٠٠ حديث [انظر ترجمته فى تذكرة الحفاظ ١٥٢/٢ وطبقات الحنابلة ١١٨ ، وتهذيب ابن عساكر ٢٤٤/٦ وتاريخ بغداد ٥٥/٩ وابن خلكان ٢١٤/١] الأعلام للزركلى ج ١٢٢/٣ .

فقضى على أحدهما ، فقال المقضى عليه : حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ، فقال - صلى الله عليه وسلم - : **« إِنَّ اللهَ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ ، وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالْكَيْسِ فَإِنْ غَلَبَكَ أَمْرٌ فَقُلْ : حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ »** (١).

وقد تكلم الناس فى حمل الزاد فى الحج وغيره من الأسفار ، فالذى مضت عليه سنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وسنة خلفائه الراشدين وأصحابه والتابعين لهم بإحسان ، وأكابر المشائخ هو حمل الزاد ؛ لما فى ذلك من طاعة الله ورسوله ، وانتفاع الحامل ونفعه للناس .

وزعمت (طائفة) أن من تمام التوكل أن لايحمل الزاد ، وقد رد الأكابر هذا القول ، كما رده الحارث المحاسبى (٢) فى (كتاب التوكل) وحكاه عن شقيق البلخى (٣) ، وبالغ فى الرد على من قال بذلك وذكر من الحجج عليهم مايبين به غلطهم وأنهم غالطون فى معرفة حقيقة التوكل وأنهم عاصون لله بما يتركون من طاعته وقد حكى لأحمد بن حنبل (٤) أن بعض الغلاة الجهال بحقيقة التوكل كان

---

(١) رواه أبو داود عن عوف بن مالك (كتاب الأقضية) حديث رقم ٣٦٢٧ ج ٣/٣١٣ والحديث صحيح أورده الألبانى فى (صحيح الكلم الطيب) .

(٢) هو أبو عبدالله الحارث بن أسد المحاسبى من كبار الصوفية .. اشتهر بالزهد والوعظ وله دراية بالأصول والمعاملات ، صاحب تصانيف كثيرة منها (كتاب التوهم) و(كتاب التوكل) و(المسائل فى أعمال القلوب والجوارح) ولد بالبصرة وتوفى ببغداد سنة (٢٤٣ هـ /٨٥٧ م) . [انظر فى ترجمته : تهذيب التهذيب ١٣٤/٢ ، وصفة الصفوة ٢٠٧/٢ ، وميزان الاعتدال ١٩٩/١ ، وحلية الأولياء ٧٣/١٠] الأعلام للزركلى ج ١٥٣/٢ .

(٣) هو أبو على : شقيق بن إبراهيم بن على الأزدى البلخى : صوفى من الزهاد ، كان من المجاهدين ، استشهد فى غزوة (كولان) فيما وراء النهر سنة ١٩٤ هـ/٨١٠ م [انظر ترجمته فى : فوات الوفيات ١٨٧/١ ، والوفيات ٢٢٦/١ ، وحلية الأولياء ٥٨/٨ ، وميزان الاعتدال ٤٤٩/١] الأعلام للزركلى ج ١٧١/٣ .

(٤) هو أبو عبد الله : أحمد بن محمد بن حنبل الإمام المحدث الفقيه صاحب الشهرة إليه ينسب المذهب الحنبلى ، كان جوالاً فى طلب العلم ، له (المسند) المشتمل على ثلاثين ألف حديث ، خالف المعتزلة فتعرض للامتحان والتعذيب ، ولد فى بغداد (١٦٤ هـ/٧٨٠ م) وتوفى فيها (٢٤١هـ /٨٥٥ م) [انظر فى ترجمته : ابن عساكر ٢٨/٢ ، وحلية الأولياء ١٦١/٩ وصفة الصفوة ١٩٠/٢ ، وابن خلكان ١٧/١ ، وتاريخ بغداد ٤١٢/٤ والبداية والنهاية ٣٢٥/١٠ - ٣٤٣] الأعلام للزركلى ج ٢٠٣/١ .

إذا وضع له الطعام لم يمد يده حتى يوضع فى فمه ، وإذا وضع يطبق فمه حتى يفتحوه ويدخلوا فيه الطعام ، فأنكر ذلك أشد الإنكار ، ومن هؤلاء من حرم المكاسب .

وهذا وأمثاله من قلة العلم بسنة الله فى خلقه وأمره ، فإن الله خلق المخلوقات بأسباب وشرع للعباد أسبابا ينالون بها مغفرته ورحمته وثوابه فى الدنيا والآخرة ،، فمن ظن أنه بمجرد توكله مع تركه ما أمره الله به من الأسباب يحصل مطلوبه ، وأن المطالب لاتتوقف على الأسباب التى جعلها الله أسبابا لها ، فهو غالط فالله — سبحانه — وإن كان قد ضمن للعبد رزقه ، وهو لابد أن يرزقه ما عُمِّرَ ، فهذا لايمنع أن يكون ذلك الرزق المضمون له أسباب تحصل من فعل العبد وغير فعله

و(أيضا) فقد يرزقه حلالاً وحراما ، فإذا فعل ما أمره به رزقه حلالاً ، وإذا ترك ما أمره به فقد يرزقه من حرام

ومن هذا الباب الدعاء والتوكل ، فقد ظن بعض الناس أن ذلك لاتأثير له فى حصول مطلوب ، ولا دفع مرهوب ، ولكنه عبادة محضة ، ولكن ماحصل به حصل بدونه ، وظن آخرون أن ذلك مجرد علامة ، والصواب الذى عليه السلف والأئمة والجمهور أن ذلك من أعظم الأسباب التى تنال بها سعادة الدنيا والآخرة .

وما قدره الله بالدعاء والتوكل والكسب وغير ذلك من الأسباب إذا قال القائل : فلو لم يكن السبب ماذا يكون ؟ بمنزلة من يقول هذا المقتول لو لم يقتل هل كان يعيش ؟ وقد ظن بعض القدرية أنه كان يعيش ، وظن بعض المنتسبين إلى السنة أنه كان يموت ، والصواب أن هذا تقدير لأمر علم الله أنه يكون فالله قدر موته بهذا السبب فلا يموت إلا به ، كما قدر الله سعادة هذا فى الدنيا والآخرة بعبادته ودعائه وتوكله وعمله الصالح وكسبه ، فلا يحصل إلا به ، وإذا قدر عدم هذا السبب لم يعلم مايكون المقدر ، وبتقدير علمه فقد يكون المقدر حينئذ أنه يموت ، وقد يكون المقدر أنه يحيى ، والجزم بأحدهما خطأ .

ولو قال القائل : أنا لا آكل ولا أشرب ، فإن كان الله قدر حياتى فهو يحيينى

بدون الأكل والشرب كان أحمق ، كمن قال : أنا لا أطأ امرأتى ، فإن كان الله قدر لى ولداً تحمل من غير ذكر .

فصـــل (1)

إذا عرف هذا : فالسالكون طريق الله : منهم من يكون مع قيامه بما أمره الله به من الجهاد والعلم والعبادة وغير ذلك عاجزا عن الكسب ، كالذين ذكرهم الله فى قوله ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ (2) والذين ذكرهم الله فى قوله ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ (3).

(الصنف الأول) أهل صدقات ، (والصنف الثانى) أهل الفىء ، كما قال – تعالى – فى الصنف الاول : ﴿ إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (4) إلى قوله : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ قال فى (الصنف الثانى) : ﴿ مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ (5) إلى قوله : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ ﴾ ثم قال : ﴿ وَالَّذِينَ

---

(1) أثبتنا هذا العنوان الفاصل كما وجدناه فى الأصل المطبوع وفى نفس موضعه
(2) جزء من الآية ٢٧٣ من سورة البقرة .
(3) الآية ٨ من سورة الحشر .
(4) الآية ٢٧١ من سورة البقرة .
(5) جزء من الآية ٧ من سورة الحشر .

﴿تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ (١) فذكر المهاجرين والأنصار ، وكان المهاجرون تغلب عليهم التجارة ، والأنصار تغلب عليهم الزراعة ، وقد قال للطائفتين : ﴿أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ (٢) فذكر زكاة التجارة وزكاة الخارج من الأرض وهو العشر ، أو نصف العشر ، أو ربع العشر .

ومن السالكين من يمكنه الكسب مع ذلك ، وقد قال تعالى لما أمرهم بقيام الليل : ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ (٣) فجعل المسلمين أربعة أصناف : صنفا أهل القرآن والعلم والعبادة ، وصنفا يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله، وصنفا يجاهدون فى سبيل الله ، والرابع المعذورون .

وأما قول القائل : إن الغذاء والقوام هو من فعل الله ، فلا يمكن طلبه كالحياة ، فليس كذلك هو ، بل مافعل الله بأسباب يمكن طلبه بطلب الاسباب كما مثله فى الحياة والموت ، فإن الموت يمكن طلبه ودفعه بالأسباب التى قدرها الله ، فإذا أردنا أن يموت عدو الله سعينا فى قتله ، وإذا أردنا دفع ذلك عن المؤمنين دفعناه بما شرع الله الدفع به ، قال - تعالى - فى داود - عليه السلام - : ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ (٤) وقال - تعالى - : ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ (٥) وقال - تعالى - : ﴿فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ (٦) وهذا مثل دفع الحر والبرد عنا هو من فعل الله باللباس (٧) والاكتساب، ومثل دفع الجوع والعطش هو

(١) جزء من الآية ٩ من سورة الحشر .
(٢) جزء من الآية ٢٦٧ من سورة البقرة .
(٣) جزء من الآية ٢٠ من سورة المزمل .
(٤) جزء من الآية ٨٠ من سورة الأنبياء .
(٥) جزء من الآية ٨١ من سورة النحل .
(٦) جزء من الآية ١٠٢ من سورة النساء .
(٧) كانت (فاللباس) فصوبناها .

بالطعام والشراب ، وهذا كما أن إزهاق الروح هو من فعل الله ، و يمكن طلبه بالقتل ، وحصول العلم والهدى فى القلب ، هو من فعل الله ويمكن طلبه بأسبابه المأمور بها وبالدعاء .

وقول القائل : إن الله يفعل بسبب وبغير سبب ، فمن أين يلزمنا طلب السبب

جوابه : أن يقال له : ليس الأمر كذلك بل جميع مايخلقه الله ويقدره إنما يخلقه ويقدره بأسباب ، لكن من الأسباب مايخرج عن قدرة العبد ومنها مايكون مقدورا له ، ومن الأسباب مايفعله العبد ومنها مالايفعله .

والأسباب منها (معتاد) ومنها (نادر) ، فإنه فى بعض الأعوام قد يمسك المطر ويغذى الزرع بريح يرسلها ، وكما يكثر الطعام والشراب بدعاء النبى – صلى الله عليه وسلم – والرجل الصالح ، فهو أيضا من الأسباب .

ولاريب أن الرزق قد يأتى على أيدى الخلق ، فمن الناس من يأتيه برزقه جِنِّىٌّ أو مَلَك أو بعض الطير والبهائم ، وهذا نادر والجمهور إنما يرزقون بواسطة بنى آدم مثل أكثر الذين يعجزون عن الأسباب ، يرزقون على أيدى من يعطيهم : إما صدقة ، وإما هدية ، أو نذرا ، وإما غير ذلك بما يؤتيه الله على أيدى ما ييسره لهم .

وقد ثبت فى الصحيح عن النبى – صلى الله عليه وسلم – أنه قال : « **يَا ابْنَ آدَمَ أَنْ تُنْفِقَ الْفَضْلَ خَيْرٌ لَكَ ، وَأَنْ تُمْسِكَ الْفَضْلَ شَرٌّ لَكَ ، وَلَا يُلَامُ عَلَى كَفَافٍ ، وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى** »[1] وفى حديث صحيح: « **يَدُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا وَيَدُ الْمُعْطِى الَّتِى تَلِيهَا ، وَيَدُ السَّائِلِ السُّفْلَى** »[2] .

وبعض الناس يزعم أن يد السائل الآخذ هى العليا ، لأن الصدقة تقع بيد

---

(١) رواه أحمد ، ومسلم ، والترمذى عن أبى أمامة ، وصححه الألبانى فى (صحيح الجامع الصغير وزيادته) حديث رقم ٧٨٣٤ ج ١٢٩٣/٢ ، كما خرجه فى (إرواء الغليل) ، حديث رقم ٨٣٤ .

(٢) رواه أحمد عن مالك بن نضلة ، وطرف الحديث : (**الأيدى ثلاثة : فيد الله العليا**) الحديث .

وقد صححه الألبانى فى (صحيح الجامع الصغير) برقم ٢٧٩٤ ج ٥٤٠/١ ، وهو فى (كنز العمال) تحت رقمى ١٦٠٤٧ ج ٣٥٨/٦ ، ١٦١٥٤ ج ٣٨١/٦ ، وأخرجه الحاكم فى (المستدرك) كتاب الزكاة ٤٠٨/١ وقال : صحيح الإسناد ، وسكت عنه الذهبى فى التلخيص ، وأخرجه أبو داود فى (كتاب الزكاة) باب (فى الاستعفاف) حديث رقم ١٦٣٣ .

الحق ، وهذا خلاف نص رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حين أخبر : أن يد الله هى العليا ، ويد المعطى التى تليها ، ويد السائل السفلى .

وقول القائل : إن الله ضمن ضمانا مطلقا .

فيقال له : هذا لايمنع وجوب الأسباب على مايجب ، فإن فيما ضمنه رزق الأطفال والبهائم والزوجات ، ومع هـذا فيجب على الرجل أن ينـفق على ولده وبهائمه وزوجته ، بإجماع المسلمين ، ونفقته على نفسه أوجب عليه .

وقول القائل : كيف يطلب مالايعرف مكانه ؟

جوابه : إنه يفعل السبب المأمور به ويتوكل على الله فيما يخرج عن قدرته ، مثل الذى يشق الأرض ويلقى الحب ويتوكل على الله فى إنزال المطر وإنبات الزرع ودفع المؤذيات ، وكذلك التاجر غاية قدرته تحصيل السلعة ونقلها ، وأما إلقاء الرغبة فى قلب من يطلبها وبذل الثمن الذى يربح به فهذا ليس مقدورا للعبد ، ومن فعل ماقدر عليه لم يعاقبه الله بما عجز عنه ، والطلب لايتوجه إلى شيء معين ، بل إلى مايكفيه من الرزق ، كالداعى الذى يطلب من الله رزقه وكفايته من غير تعيين .

فصل

فإذا عرف ذلك : فمن الكسب مايكون واجبا ، مثل الرجل المحتاج إلى نفقته على نفسه أو عياله أو قضاء دينه وهو قادر على الكسب ، وليس هو مشغولاً بأمر أمره الله به ، هو أفضل عند الله من الكسب ، فهذا يجب عليه الكسب باتفاق العلماء ، وإذا تركه كان عاصيا آثماً .

ومنه مايكون مستحبا : مثل هذا إذا اكتسب مايتصدق به ، فقد ثبت فى الصحيحـين عن أبى موسى [1] عن النبى - صلى الله عليه وسلم - أنه

---

(١) هو أبو موسى عبد الله بن قيس بن سليم بن حضار بن حرب ، من بنى الأشعر : صحابى جليل من الفاتحين ، اشتهر تاريخيا بأنه أحد الحكمين بين على ومعاوية ، ولد فى اليمن (٢١ ق هـ/٦٠٢ م) وأسلم مبكرا ، وتوفى بالكوفة (٤٤ هـ/٦٦٥ م) ، له ٣٥٥ حديثا [انظر فى ترجمته : طبقات ابن سعد ٧٩/٤ ، والإصابة الترجمة رقم ٤٨٨٩ ، وصفة الصفوة ٢٢٥/١ ، وحلية الأولياء ٢٥٦/١] الأعلام للزركلى ج ١٤/٤ .

قال : « عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ . قَالُوا : يَارَسُولَ اللهِ : فَمَنْ لَمْ يَجِدْ ؟ قَالَ : يَعْمَلُ بِيَدِهِ يَنْفَعُ نَفْسَهُ وَيَتَصَدَّقُ . قَالُوا : فَإِنْ لَمْ يَجِدْ ؟ قَالَ : يُعِينُ ذَا الْحَاجَةِ الْمَلْهُوفَ . قَالُوا : فَإِنْ لَمْ يَجِدْ ؟ قَالَ : فَلْيَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَلْيُمْسِكْ عَنِ الشَّرِّ فَإِنَّهَا لَهُ صَدَقَةٌ » [١] .

فصل

وأما قول القائل : إن الأنبياء والأولياء لم يطلبوا رزقا فليس الأمر كذلك ، بل عامة الأنبياء كانوا يفعلون أسبابا يحصل بها الرزق ، كما قال نبينا – صلى الله عليه وسلم – فى الحديث الذى رواه أحمد فى المسند عن ابن عمر [٢] عن النبى – صلى الله عليه وسلم – أنه قال : « بُعِثْتُ بالسَّيْفِ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ حَتَّى يُعْبَدَ اللهُ وَحْدَهُ لاشَرِيكَ لَهُ ، وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي ، وَجُعِلَ الذُّلُّ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي ، وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ » [٣]

وقد ثبت فى الصحيح قوله – صلى الله عليه وسلم –: « إِنَّ أَفْضَلَ مَا أَكَلَ الرَّجُلُ مِنْ كَسْبِهِ » [٤] . وكان داود يأكل من كسبه ، وكان يصنع الدروع .

---

(١) أخرجه البخارى (١٢١/٢) ، ومسلم (٨٣/٣) ، والنسائى (٣٥١/١) ، وأحمد (٣٩٥/٤ ، ٤١١) من حديث أبى موسى الأشعرى » وهو فى (صحيح الجامع الصغير) برقم ٤٠٣٧ ج ٧٤٦/٢ وفى (سلسلة الأحاديث الصحيحة وشىء من فقهها) للألبانى أيضا برقم ٥٧٣ ج ٩٥/٢ .

(٢) هو أبو عبد الرحمن : عبد الله بن عمر بن الخطاب العدوى : صحابى جليل نشأ فى الإسلام ، وهاجر مع أبيه إلى المدينة وكان يماثله فى الفضل والشرف ولد بمكة (١٠ ق هـ/٦١٣ م) وتوفى فيها (٧٣ هـ/٦٩٢ م) له فى كتب الحديث ٢٦٣ حديثا [انظر ترجمته فى الإصابة ٤٨٢٥ ، وابن خلكان ٢٤٦/١ ، وتهذيب الأسماء ٢٧٨/١ ، وطبقات ابن سعد ١٠٥/٤ – ١٣٨ ، وحلية الأولياء ٢٩٢/١ ، وصفة الصفوة ٢٢٨/١] الأعلام للزركلى ج ١٠٨/٤ .

(٣) رواه أحمد ، وأبو يعلى ، والطبرانى : عن ابن عمر ، وصححه الألبانى فى (صحيح الجامع الصغير) برقم ٢٨٣١ ج ٥٤٥/١ وأفاض فى تخريجه فى (إرواء الغليل) حديث رقم ١٢٦٩ ج ١٠٩/٥

(٤) رواه أبو داود ، والحاكم : عن عائشة ، ونصه : « إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه ، وولده من كسبه » غير أن الروايات بهذا المعنى عديدة وبألفاظ قريبة ، فانظر أبا داود : (البيوع ٧٧) ، وابن ماجه : (تجارات ١ ، ٦٤) ، وأحمد : ٣١/٦ ، ٤٢ ، ١٢٧ ، ١٧٣ ، ١٩٣ ، ٢٠٢ ، ٢٢٠ ، والدارمى : (بيوع ٦) ، وصححه الألبانى فى تخريجه لأحاديث (منار السبيل) المسمى (بإرواء الغليل) حديث رقم ١٦٢٦ ج ٦٥/٦ .

وكان زكريا نجارا ، وكان الخليل له ماشية كثيرة حتى إنه كان يقدم للضيف الذين لايعرفهم عجلاً سمينا ، وهذا إنما يكون مع اليسار .

وخيار الأولياء المتوكلين : المهاجرون والأنصار ، وأبو بكر الصديق[(1)] - رضى الله عنه - أفضل الأولياء المتوكلين بعد الأنبياء . وكان عامتهم يرزقهم الله بأسباب يفعلونها ، كان الصديق تاجراً ، وكان يأخذ مايحصل له من المغنم ، ولما ولى الخلافة جعل له من بيت المال كل يوم درهمان ، وقد أخرج ماله كله ، وقال له النبى - صلى الله عليه وسلم - : « **مَا تَرَكْتَ لِأَهْلِكَ ؟** » **قال : « تركت لهم الله ورسوله »** [(2)] ومع هذا فما كان يأخذ من أحد شيئا ، لاصدقة ، ولافتوحا ، ولانذرا ، بل إنما كان يعيش من كسبه .

بخلاف من يدعى التوكل ويخرج ماله كله ظانا أنه يقتدى بالصديق ، وهو يأخذ من الناس ، إما بمسألة وإما بغير مسألة ، فإن هذه ليست حال أبى بكر الصديق ، بل فى (المسند) : « **إِنَّ الصِّدِّيقَ كَانَ إِذَا وَقَعَ مِنْ يَدِهِ سَوْطٌ يَنْزِلُ فَيَأْخُذُهُ ولايقولُ لأحدٍ : نَاوِلْنِى إِيَّاهُ ويقولُ : إِنَّ خَلِيلِى أَمَرَنِى أَن لَّا أَسْأَلَ النَّاسَ شَيْئاً** » [(3)] فأين هذا ممن جعل الكدية [(4)] وسؤال الناس طريقا إلى الله ؟! حتى إنهم يأمرون المريد بالمسألة للخلق .

(1) هو عبدالله بن أبى قحافة : عثمان بن عامر ، من سادات قريش وأغناها وأعلمها ، أول من آمن من الرجال ، وأول الخلفاء الراشدين ، بذل الأموال وحضر الوقائع وحارب المرتدين ، ورفيق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى الهجرة ، وصدقه حين كذبه الناس ، له فى كتب الحديث ٥٣٧ حديثا ، ولد بمكة (٥١ ق هـ/٥٧٣ م) وتوفى بالمدينة (١٣ هـ/٦٣٤ م) [انظر فى ترجمته : طبقات ابن سعد ٢٦/٩ - ٢٨ ، وصفة الصفوة ٨٨/١ ، وحلية الأولياء ٩٣/٤ ، ومنهاج السنة ١١٨/٣ ، وغيرها] الأعلام للزركلى ج ١٠٢/٤ .

(2) رواه الدارمى ، وأبو داود ، والترمذى فى : كتاب مناقب أبى بكر الصديق برقم ٣٧٥٧ ، ولفظ الحديث : « **مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ** » قال الترمذى : حديث حسن صحيح . وقال الألبانى فى تخريج أحاديث (مشكاة المصابيح) : إسناده حسن وقد أخرجه أيضا الشاشى وابن أبى عاصم وابن شاهين فى السنة ، والحاكم وغيرهم ، وهو فى (كنز العمال) برقم ٣٥٦١١ ج ٤٩١/١٢ .

(3) رواه أحمد عن ابن مليكة ، وقال الحافظ ابن حجر فى (الأطراف) : هذا منقطع . (انظر كنز العمال) حديث رقم ١٧١١٣ ج ٦١٩/٦

(4) الكدية : حرفة السائل الملح يقال : أكدى الناس إذا سألهم إلحافا وألح عليهم .

وقد تواترت الأحاديث عن النبى – صلى الله عليه وسلم – بتحريم مسألة الناس ، إلا عند الضرورة وقال : « **لا تَحِلُّ الْمَسْأَلَةُ إِلَّا لِذِى غُرْمٍ مُفْظِعٍ ، أَوْ دَمٍ مُوجِعٍ ، أَوْ فَقْرٍ مُدْقِعٍ** »[1] وقال – تعالى – : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴾[2] فأمره أن تكون رغبته إلى الله وحده .

ومن هؤلاء من يجعل دعاء الله ومسألته نقصا ، وهو مع ذلك يسأل الناس ويكديهم ، وسؤال العبد لربه حاجَتَهُ من أفضل العبادات ، وهو طريق أنبياء الله ، وقد أمر العبادَ بسؤاله. فقال : ﴿ وَسْئَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ ﴾[3] ومدح الذين يدعون ربهم رغبة ورهبة ومن الدعاء ماهو فرض على كل مسلم . كالدعاء المذكور فى فاتحة الكتاب .

ومن هؤلاء من يحتج بما يروى عن الخليل أنه لما ألقى فى النار قال له جبرئيل : هل لك من حاجة ؟ فقال : أما إليك فلا ، قال :سل، قال:حسبى من سؤالى علمه بحالى[4] ، وأول هذا الحديث معروف ، وهو قوله : « **أما إليك فلا** » .

وقد ثبت فى صحيح البخارى عن ابن عباس[5]– رضى الله عنهما – فى قوله :

---

(١) رواه أحمد (١١٤/٣) وأبو داود (١٦٤١) وابن ماجه (٢١٩٨) عن أنس مرفوعا ، وقد ضعفه الألبانى فى (إرواء الغليل) رقم ٨٦٧ ج ٣٧٠/٣ قال : قال الترمذى : (حديث حسن) ولكن فيه عبدالله الحنفى ، هو (أبو بكر الحنفى) قال الحافظ فى (التقريب): لايعرف حاله . وقال فى (التخليص ٢٣٧) : (وأعله القطان بجهل حال أبى بكر الحنفى ونقل عن البخارى أنه قال : لايصح حديثه) .

(٢) الآيتان ٧ ، ٨ من سورة الشرح .

(٣) جزء من الآية ٣٢ من سورة النساء .

(٤) وردت هذه القصة دون إسناد فى بعض كتب التاريخ والسير والتفسير ، حتى إن ابن كثير حين تطرق إليها فى (البداية والنهاية) ١٣٨/١ قال : (وذكر بعض السلف :) فذكرها ولم يعلق عليها ، و كذلك فعل فى تفسيره للآيتين ٦٩ ، ٧٠ من سورة الأنبياء ، انظر (تفسير القرآن العظيم) ج ٥٧٢/٤ .

(٥) هو أبو العباس : عبدالله بن عباس بن عبد المطلب القرشى الهاشمى ، حبر الأمة وترجمان القران ، لازم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فروى عنه الأحاديث الصحيحة التى بلغت ١٦٦٠ حديثا فى الصحيحين وغيرهما .. ولد بمكة (٣ ق هـ/٦١٩ م) وتوفى بالطائف (٦٨ هـ/٦٨٧ م) [انظر ترجمته فى : الإصابة ٤٧٧٢ ، وصفة الصفوة ٣١٤/١ ، وحلية الأولياء ٣١٤/١] الأعلام للزركلى ج ٩٥/٤ .

﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ أنه قالها إبراهيم حين ألقى فى النار ، وقالها محمد- صلى الله عليه وسلم - حين قال له الناس : ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾ [1].

واما قوله : حسبى من سؤالى علمه بحالى فكلام باطل ، خلاف ماذكره الله عن إبراهيم الخليل وغيره من الأنبياء من دعائهم لله ومسالتهم إياه ، وهو خلاف ما أمر الله به عبادة من سؤالهم له صلاح الدنيا والآخرة . كقولهم ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ ودعاء الله وسؤاله والتوكل عليه عبادة لله مشروعة باسباب كما يقدء بها ، فكيف يكون بجرد العلم مسقطا لما خلقه وأمر به ؟ والله أعلم . وصلى الله على محمد وسلم .

---

(١) قال البخارى : حدثنا أحمد بن يونس اراهُ قال . حدثنا ابو بكر ، عن ابى الحصين ، عن ابى الضحى عن ابن عباس : فذكره . قال ابن كثير ٢/١٦١ فى تفسيره للآية ١٧٣ من سورة آل عمران : وقد رواه النسائى عن محمد بن إسماعيل بن إبراهيم ، وهارون بن عبدالله : كلاهما عن يحيى بن أبى بكر عن أبى بكر وهو ابن عياش به . ثم قال ابن كثير : والعجب أن الحاكم أبا عبدالله رواه من حديث أحمد بن يونس به ثم قال : صحيح الإسناد على شرط الشيخين ولم يخرجاه . ثم رواه البخارى عن أبى غسان مالك بن إسماعيل عن إسرائيل عن أبى الحصين عن أبى الضحى عن ابن عباس

جزء من الآية ٢٠١ من سورة البقرة .

الفتوى الثانية (٥٤٠ - ٨/٥٤١) .

سئل شيخ الإسلام :

عن الرزق : هل يزيد أو ينقص ؟ وهل هو ما أكل أو ماملكه العبد ؟

فأجاب :

الرزق نوعان :

(أحدهما) : ما علمه الله أنه يرزقه ، فهذا لايتغير .

و(الثانى) ماكتبه الله وأعلم به الملائكة فهذا يزيد وينقص بحسب الأسباب ، فإن العبد يأمر الله الملائكة أن تكتب له رزقا ، وإن وصل رحمه زاده الله على ذلك ، كما ثبت فى الصحيح عن النبى – صلى الله عليه وسلم – أنه قال : « **مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ ، وَيُنْسأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ** [1] **فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ** » [2] وكذلك عمر داود زاد ستين سنة ، فجعله الله مائة سنة بعد أن كان أربعين [3] ، ومن هذا الباب قول عمر [4] : اللهمَّ إن كنتَ كَتَبْتَنِى شَقِياً فامْحُنِى واكتبنى سعيداً ؛ فَإِنَّكَ تَمْحُو ماتشاءُ وَتُثْبِتُ [5] .

---

(١) ينسأ له فى أثره ، أى: يؤخر له فى بقية عمره ، أو المعنى بقاء ذكره الجميل بعد الموت .

(٢) متفق عليه من حديث أنس ، وأخرجه البخارى من حديث أبى هريرة ، والحاكم (١٦٠/٤) من حديث على وابن عباس ، وروى نحوه أحمد وأبو داود والنسائى عن أنس ، وهو فى (صحيح الجامع الصغير) للألبانى برقم ٦٢٩١ ج ١٠٧٨/٢ .

(٣) رواه الترمذى (١٨١/٢) وقال : حديث حسن صحيح ، وقد روى من غير وجه عن النبى – صلى الله عليه وسلم – ورواه الحاكم (٥٨٥/٢ - ٥٨٦) فى مستدركه من حديث أبى نعيم الفضل ، وقال : (صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه) ، وحسنه الألبانى فى (مشكاة المصابيح) رقم ١١٨ ج ٤٢/١ قال : سنده حسن وصححه الحاكم .

(٤) هو أبو حفص أمير المؤمنين : عمر بن الخطاب بن نفيل القرشى العدوى (٤٠ ق هـ/٥٨٤ م - ٢٣ هـ/ ٦٤٤ م) ثانى الخلفاء الراشدين ، يضرب بعدله المثل . أعز الله به الإسلام ، وتم فى عهده فتح الشام والعراق والقدس ومصر وسائر الجزيرة ، كان حازما مجتهدا ، له فى كتب الحديث ٥٣٧ حديثا [انظر فى ترجمته : الطبرى ١٨٧/١ - ٢١٧ و٢/٢-٨٢، والإصابة ٧٥٣٨ ، وصفة الصفوة ١٠١/١ ، وحلية الأولياء ٣٨/١] الأعلام للزركلى ج ٤٦/٥

(٥) رواه عبد بن حميد ، وابن جرير وابن المنذر ، وهو فى (كنز العمال) حديث رقم ٥٠٣٧ ج ٦٧٤/٢ .

ومن هذا الباب قوله – تعالى – عن نوح : ﴿ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ (١) وشواهد كثيرة .

والأسباب التى يحصل بها الرزق هى من جملة ماقدره الله وكتبه ، فإن كان قد تقدم بأنه يرزق العبد بسعيه واكتسابه ألهمه السعى والاكتساب ، وذلك الذى قدره له بالاكتساب لايحصل بدون الاكتساب ، وماقدره له بغير اكتساب : كموت مورثه يأتيه به بغير اكتساب . والسعى سعيان : سعى فيما نصب للرزق ، كالصناعة والزراعة والتجارة ، وسعى بالدعاء والتوكل والإحسان إلى الخلق ونحو ذلك ، فإن الله فى عون العبد ماكان العبد فى عون أخيه .

فصل

والرزق يراد به شيئان :

(أحدهما) : ماينتفع به العبد .

و(الثانى) : مايملكه العبد .

فهذا الثانى هو المذكور فى قوله : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (٢) وقوله : ﴿ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم ﴾ (٣) وهذا هو الحلال الذى ملكه الله إياه .

وأما الأول : فهو المذكور فى قوله : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ

---

(١) الآية ٣ وجزء من الآية ٤ من سورة نوح .

(٢) وردت فى القرآن الكريم ست مرات : فى الايات : ٣ (البقرة) و٣ (الأنفال) و٣٥ (الحج) و٥٤ (القصص) و١٦ (السجدة) و٣٨ (الشورى) .

(٣) جزء من الآية ١٠ من سورة المنافقون .

رِزْقُهَا﴾ [1] وقوله – صلى الله عليه وسلم – : « إِنَّ نَفْساً لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَكْمِلَ رِزْقَهَا » [2] ونحو ذلك .

والعبد قد يأكل الحلال والحرام فهو رزق بهذا الاعتبار ، لا بالاعتبار الثانى ، وما اكتسبه ولم ينتفع به هو رزق بالاعتبار الثانى دون الأول ؛ فإن هذا فى الحقيقة مال وارثه لا ماله ، والله أعلم .

***

---

(١) جزء من الآية ٦ من سورة هود .

(٢) رواه ابن ماجه عن جابر بن عبدالله (كتاب التجارات : باب الاقتصاد فى طلب المعيشة) ، وصححه الألبانى فى (صحيح سنن ابن ماجه) برقم ١٧٤٣ ج ٢/٦ وطرف الحديث : « **يا أيها الناس اتقوا الله وأجملوا فى الطلب ؛ فإن نفساً لن تموت حتى تستوفى رزقها** » . ورواه البيهقى فى (شعب الإيمان) كذلك .. وانظر (مشكاة المصابيح) للتبريزى بتحقيق الألبانى حديث رقم ٥٣٠٠ ج ١٤٥٨/٣ . ورواه ابن الجارود عن جابر والحكيم عن حذيفة وعن ابن مسعود ، والعسكرى فى (الأمثال) عن ابن مسعود ، والطبرانى عن أبى أمامة ، والحاكم عن جابر والنسائى عن ابن مسعود ، وأبو نعيم فى (الحلية) عن أبى أمامة ، وانظر (كنز العمال) الأحاديث : ٩٢٨٩ و٩٢٩٠ و٩٣٠٨ و٩٣٠٩ و٩٣١٠ و٩٣١١ و٩٣١٢ و٩٣١٤ و٩٣١٥ و٩٣١٦ و٩٣١٧ فى الجزء الرابع منه .

الفتوى الثالثة (٥٤٢ - ٥٤٤/٨) :

سئل شيخ الإسلام ، مفتى الأنام ، أوحد عصره ، فريد دهره : تقى الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية - رحمه الله ورضى عنه - عن الرجل : إذا قطع الطريق وسرق أو أكل الحرام ونحو ذلك ، هل هو رزقه الذى ضمنه الله - تعالى - له أم لا ؟ أفتونا مأجورين .

فأجاب :

الحمد لله :

ليس هذا هو الرزق الذى أباحه الله له ، ولايحب ذلك ولايرضاه ، ولا أمره ان يتفق منه كقوله - تعالى - : ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [(١)] وكقوله - تعالى - : ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم﴾ [(٢)] ونحو ذلك لم يدخل فيه الحرام ، بل من أنفق من الحرام ، فإن الله - تعالى - يذمه ويستحق بذلك العقاب فى الدنيا والآخرة بحسب دينه . وقد قال الله : ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾ [(٣)] وهذا أكل المال بالباطل .

ولكن هذا الرزق الذى سبق به علم الله وقدره ، كما فى الحديث الصحيح عن ابن مسعود [(٤)] عن النبى - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « **يُجْمَعُ خَلْقُ أَحَدِكُمْ فى بَطْنِ أمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْماً نُطْفَةً ، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ إِلَيْهِ الْمَلَكَ فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ : فَيَكْتُبُ رِزْقَهُ**

---

(١) وردت فى القرآن الكريم ست مرات : انظر الهامش رقم ١ ص ٢٦ .

(٢) جزء من الآية ١٠ من سورة المنافقون .

(٣) جزء من الآية ١٨٨ من سورة البقرة .

(٤) هو أبو عبد الرحمن : عبدالله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلى ، من أكابر الصحابة - رضوان الله عليهم - ومن أسبقهم إلى الإسلام ، وأول من جهر بقراءة القرآن بمكة . خدم الرسول - صلى الله عليه وسلم - وصحبه فى حله وترحاله ، قيل فيه : إنه وعاء ملىء علما ، وشهدوا له بالفضل والعقل ، له فى كتب الحديث ٨٤٨ حديثا ، وتوفى بالمدينة سنة (٣٢ هـ/٦٥٣ م)[انظر ترجمته فى : الإصابة ٤٩٥٥ ، وصفة الصفوة ١٥٤/١ ، وحلية الأولياء ١٢٤/١] الأعلام للزركلى ص ١٣٧/٤

وَعَمَلَهُ وَأَجَلَهُ وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ » [1] فكما أن الله كتب ما يعمله من خير وشر ، وهو يثيبه على الخير ويعاقبه على الشر فكذلك كتب مايرزقه من حلال وحرام ، مع أنه يعاقبه على الرزق الحرام .

ولهذا كل مافى الوجود واقع بمشيئة الله وقدره كما تقع سائر الأعمال ، لكن لاعذر لأحد بالقدر ، بل القدر يؤمن به ، وليس لأحد أن يحتج على الله بالقدر ، بل لله الحجة البالغة ، ومن احتج بالقدر على ركوب المعاصى ، فحجته داحضة ، ومن اعتذر به فعذره غير مقبول ، كالذين قالوا : ﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا ﴾ [2] والذين قالوا : ﴿ لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم ﴾ [3] كما قال - تعالى - : ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [4] .

وأما الرزق الذى ضمنه الله لعباده ، فهو قد ضمن لمن يتقيه أن يجعل له مخرجا ، ويرزقه من حيث لايحتسب ، وأما من ليس من المتقين فضمن له مايناسبه ، بأن يمنحه مايعيش به فى الدنيا ، ثم يعاقبه فى الآخرة ، كما قال عن الخليل : ﴿ وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ قال تعالى ﴿ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ [5]

والله إنما أباح الرزق لمن يستعين به على طاعته ، لم يبحه لمن يستعين به على معصيته ، بل هؤلاء وإن أكلوا ماضمنه لهم من الرزق فانه يعاقبهم ، كما قال : ﴿ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ

---

(١) أخرجه البخارى (٢٠٨/٢ ، ٣٣٢ - ٣٣٣ و٢٥١/٤) ، ومسلم (٤٤/٨) ، وأبو داود (٤٧٠٨) ، والترمذى (١٩/٢ ، ٢٠) وابن ماجه (٧٦) ، وأحمد (٣٨٢/١ ، ٤٣٠) وقال الترمذى : حديث حسن صحيح . وقد ذكره الألبانى فى (صحيح الجامع الصغير) برقم ١٥٥٣ ج ٣٢١/١ وفى (إرواء الغليل) برقم ٢١٤٣ ج ٢١٦/٧ .

(٢) جزء من الآية : ١٤٨ من سورة الأنعام .

(٣) جزء من لآية ٢٠ من سورة الزخرف .

(٤) الآيتان ٥٦ ، ٥٧ من سورة الزمر .

(٥) جزء من الآية ١٢٦ من سورة البقرة

ٱلْمَصِيرُ ﴾ [1] وقال – تعالى – : ﴿ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ﴾ [2] فإنما أباح الأنعام لمن يحرم عليه الصيد فى الإحرام .

وقال – تعالى – : ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [3] نكما أن كل حيوان ياكل ماقدر له من الرزق ، فإنه يعاقب على أخذ مالم يبح له ، سواء كان محرم الجنس ، أو كان مستعينا به على معصية الله ، ولهذا كانت أموال الكفار غير مغصوبة . بل مباحة للمؤمنين .. وتسمى فيئاً إذا عادت إلى المؤمنين ، لأن الأموال إنما يستحقها من يطيع الله لامن يعصيه بها ، فالمؤمنون يأخذونها بحكم الاستحقاق ، والكفار يعتدون فى إنفاقها ، كما أنهم يعتدون فى أعمالهم ، فإذا عادت إلى المؤمنين فقد فاءت إليهم كما يفىء المال إلى مستحقه .

* وقال – رحمه الله – فى موضع آخر فى فتواه على سؤال أبى القاسم المغربى **المعروفة باسم (الوصية الصغرى)** [٦٦٢ ، ١٠/٦٦٣] :

وأما أرجح المكاسب : فالتوكل على الله ، والثقة بكفايته ، وحسن الظن به ، وذلك أنه ينبغى للمهتم بأمر الرزق أن يلجأ فيه إلى الله ويدعوه ، كما قال – سبحانه – فيما يأثر عنه نبيه : « **كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِى أُطْعِمكُمْ ، يَاعِبَادِى ! كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِى أَكْسُكُمْ** » [4] وفيما رواه الترمذى [5] عن أنس [6] – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله

---

(١) جزء من الآية ١٢٦ من سورة البقره .

(٢) جزء من الآية الأولى من سورة المائدة .

(٣) جزء من الاية ٩٣ من سورة المائدة .

٤) سيأتى تخريجه .

(٥) سبقت الترجمة

(٦) ستأتى الترجمة .

- صلى الله عليه وسلم - : « لِيَسْأَلْ أَحَدُكُمْ رَبَّهُ حَاجَتَهُ كُلَّهَا حَتَّى شِسْعَ نَعْلِهِ إِذَا انْقَطَعَ ؛ فَإِنَّهُ إِنْ لَمْ يُيَسِّرْهُ لَمْ يَتَيَسَّرْ » [1].

وقد قال الله - تعالى - فى كتابه : ﴿وَسْئَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ﴾ [2] وقال - سبحانه - : ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَوٰةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ [3] وهذا وإن كان فى الجمعة فمعناه قائم فى جميع الصلوات . ولهذا - والله أعلم - أمر النبى - صلى الله عليه وسلم - الذى يدخل المسجد أن يقول : « اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ » [4]. وإذا خرج أن يقول : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ » [5]. وقد قال الخليل - صلى الله عليه وسلم - : ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ [6] وهذا أمر ، والأمر يقتضى الإيجاب ، فالاستعانة بالله واللجوء إليه فى أمر الرزق وغيره أصل عظيم .

ثم ينبغى له أن يأخذ المال بسَخَاوَةِ نفس ليبارك له فيه ، ولا يأخذه بإشراف وهلع ، بل يكون المال عنده بمنزلة الخلاء الذى يحتاج إليه من غير أن يكون له فى القلب مكانة ، والسعى فيه إذا سعى كإصلاح الخلاء . وفى الحديث المرفوع الذى رواه الترمذى [7] وغيره : « مَنْ أَصْبَحَ وَالدُّنْيَا أَكْبَرُ هَمِّهِ ، شَتَّتَ اللهُ عَلَيْهِ شَمْلَهُ ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ ضَيْعَتَهُ ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ ، وَمَنْ اصْبَحَ

---

(١) حديث ضعيف أخرجه الترمذى فى (الدعوات) (٢٩٢/٤) ، وابن حبان (٢٤٠٢) وغيرهما .. وقال الترمذى : هذا حديث غريب) . وقد ضعفه الألبانى ، فانظر تخريجه له فى (سلسلة الأحاديث الضعيفة) حديث رقم ١٣٦٢ ج ٥٣٧/٣ - ٥٤١ .

(٢) جزء من الاية ٣٢ من سورة النساء .

(٣) جزء من الآية ١٠ من سورة الجمعة .

(٤) رواه مسلم (٢٢٤/٥) ، وأبو داود (٣١٨/١) ، وابن ماجة (٧٧٢) ، والنسائى (٥٣/٢) ، وذكره صاحب (الصحيح المسند من أذكار اليوم والليلة) ص ٤٥ وقال : حديث صحيح ، وصححه الألبانى فى (صحيح سنن ابن ماجه) الأحاديث أرقام ٦٢٥ ، ٦٢٦ ، ٦٢٧ ج ١٢٩/١

(٥) حديث صحيح : رواه ابن ماجه (٧٧٢) وهو برقم ٦٢٦ فى (صحيح سنن ابن ماجه) للألبانى ، وهو عند أبى داود وابن ماجه والنسائى تتمة الحديث السابق .

(٦) جزء من الآية ١٧ من سورة العنكبوت .

(٧) سبقت ترجمته .

وَالآخِرَةَ أَكْبَرُ هَمِّهِ ، جَمَعَ اللهُ عَلَيْهِ شَمْلَهُ ، وَجَعَلَ غِنَاهُ فى قَلْبِهِ ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وهِيَ رَاغِمَةٌ » [1] .

وقال بعض السلف : انت محتاج إلى الدنيا ، وأنت إلى نصيبك من الآخرة أحوج ، فإن بدأت بنصيبك من الآخرة مر على نصيبك من الدنيا فانتظمه انتظاما . قال الله – تعالى – : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [2] .

فأما تعيين مكسب على مكسب من صناعة أو تجارة أو بناية أو حراثة أو غير ذلك ؛ فهذا يختلف باختلاف الناس ، ولا أعلم فى ذلك شيئا عاما ، لكن إذا عَنَّ للإنسان جهة فليستخر الله – تعالى – فيها الاستخارة المتلقاة عن معلم الخير – صلى الله عليه وسلم – فإن فيها من البركة مالا يحاط به . ثم ماتيسر له فلا يتكلف غيره ، إلا أن يكون منه كراهة شرعية .

---

(١) رواه الترمذى عن أنس (٢/٧٦) وطرفه : «من كانت الآخرة همه جعل الله غناه فى قلبه وجمع له شمله وأتته الدنيا وهى راغمة ، ومن كانت الدنيا همه ... » الحديث صححه الألبانى فى (صحيح الجامع الصغير) برقم ٦٥١٠ ج ١١١٠/٢ . وأخرج ابن ماجه (٥٢٤/٢ ، ٥٢٥) وابن حبان (٧٢) عن زيد بن ثابت : «من كانت الدنيا همه فرق الله عليه أمره ، وجعل فقره بين عينيه ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له ، ومن كانت الآخرة نيته جمع الله له أمره ، وجعل غناه فى قلبه وأتته الدنيا وهى راغمة » وهو أشبه لفظا بما ذكره ابن تيمية – رحمه الله – هنا ، وقد صححه الألبانى واورده فى (سلسلة الأحاديث الصحيحة) رقم ٩٥٠ ج ٥٤٨/٢ .

(٢) الآيات ٥٦ – ٥٨ من سورة الذاريات .

ثانيا : فى إثبات الأسباب

* الفتوى الأولى (٢٥٥ - ١٠/٢٦٢) :

سئل شيخ الإسلام - رحمه الله - عن دعوة ذى النون - عليه السلام - : ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (١) لم كانت كاشفة للكرب ؟ فكان من جوابه :

وأما قول السائل : لم كانت موجبة لكشف الضر ؟ فذلك لأن الضر لايكشفه إلا الله . كما قال تعالى - : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ﴾ (٢) والذنوب سبب للضر ، والاستغفار يزيل اسبابه كما قال - تعالى - : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ (٣) فأخبر انه - سبحانه - لايعذب مستغفرا . وفى الحديث : « مَنْ أكثَرَ الاسْتِغْفَارَ جَعَلَ الله لَهُ مِنْ كل هَمٍّ فَرَجاً ، وَمِنْ كُلِّ ضيقٍ مَخْرَجا ، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْث لايَحْتَسِبُ » (٤) وقال - تعالى - : ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴾ (٥)

---

(١) من الآية : ٨٧ من سورة الأنبياء :

(٢) جزء من الآية ١٠٧ من سورة يونس .

(٣) الآية ٣٣ من سورة الأنفال .

(٤) رواه أبو داود (١٥١٨) ، والنسائى فى (عمل اليوم والليلة) ، والحاكم (٢٦٢/٤) ، وأحمد (٢٤٨/١) ، والبيهقى (٣٥١/٣) ، والطبرانى (٩٢/٣/١) ، وابن عساكر (٢٩٦/٤/١) وغيرهم .. رووه عن الحكم بن مصعب .. قال الألبانى فى (سلسلة الأحاديث الضعيفة) رقم ٧٠٥ ج ٤٢/٢ ٩ : وسنده ضعيف ، الحكم بن مصعب مجهول كما قال الحافظ فى (التقريب) . فالحديث ضعيف ، وكثيرا مايروى بلفظ « من لزم الاستغفار » فى أوله .

(٥) الآية ٣٠ من سورة الشورى .

فقوله : ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (١) اعتراف بالذنب وهو استغفار ، فان هذا الاعتراف متضمن طلب المغفرة.

وقوله : ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ (١) تحقيق لتوحيد الإلهية ، فإن الخير لاموجب له إلا مشيئة الله ، فما شاء كان ومالم يشأ لم يكن ، والمعوق له من العبد هو ذنوبه ، وماكان خارجا عن قدرة العبد فهو من الله ، وإن كانت أفعال العباد بقدر الله - تعالى - لكن الله جعل فعل المأمور وترك المحظور سببا للنجاة ، فشهادة التوحيد تفتح باب الخير ، والاستغفار من الذنوب يغلق باب الشر .

ولهذا ينبغي للعبد أن لايعلق رجاءه إلا بالله ولايخاف من الله أن يظلمه ؛ فإن الله لايظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون ، بل يخاف أن يجزيه بذنوبه ، وهذا معنى ماروى عن على (٢) - رضى الله عنه - أنه قال : لايَرْجُوَنَّ عَبْدٌ إلا ربَّه ، ولايخافن إلا ذنبه.

وفى الحديث المرفوع إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - أنه دخل على مريض فقال : « **كَيْفَ تَجِدُكَ ؟** » فقال : أرجو الله وأخاف ذنوبى ، فقال : « **مَا اجْتَمَعَا فى قَلْبِ عَبْدٍ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْطِنِ إِلَّا أَعْطَاهُ الله مَايَرْجُو وَآمَنَهُ مِمَّا يَخَافُ** » (٣).

فالرجاء ينبغى أن يتعلق بالله ولايتعلق بمخلوق ، ولابقوة العبد ولا عمله ، فإن

---

(١) جزء من الآية ٨٧ من سورة الأنبياء .

(٢) ابو الحسن : على بن أبى طالب بن عبد المطلب الهاشمى القرشى : ابن عم النبى - صلى الله عليه وسلم - وصهره : أمير المؤمنين ، رابع الخلفاء الراشدين ، وأحد المبشرين بالجنة ، الخطيب البارع ، البطل الشجاع ، وأول الناس إسلاما بعد خديجة ولما آخى الرسول - صلى الله عليه وسلم - بين أصحابه قال له : أنت أخى » ؛ (فيما رواه الترمذى وإن ضعفه الألبانى) ، كان قدره حين تولى الخلافة أن يواجه فتنة مقتل عثمان ، وخروج معاوية عن طاعته ، وخروج الخوارج الذين قتله أحدهم ، عاش قرابة ٦٣ سنة من (٢٣ ق . هـ/٦٠٠ م) إلى (٤٠ هـ/٦٦١م) ، له فى كتب الحديث ٥٨٦ حديثا [انظر ترجمته فى : الطبرى ٦/٨٣ ، وصفة الصفوة ١/١١٨ ، وحلية الأولياء ١/٦١ ، ومنهاج السنة ٢/٢٣ ومابعدها ، ثم ٤/٢ إلى آخر الكتاب والإصابة ٥٦٩٠] الأعلام للزركلى ٤/٢٩٥ .

(٣) رواه البيهقى فى (شعب الإيمان) مرسلا عن سعيد بن المسيب ، وفيه ان المريض كان عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - انظر (كنز العمال) : ٥٨٦٨ ج ٣/١٤٠ و٨٥٢٧ ح ٣/٧٠٨

تعليق الرجاء بغير الله إشراك ، وإن كان الله قد جعل لها أسبابا فالسبب لا يستقل بنفسه ، بل لابد له من معاون ، ولابد أن يمنع المعارض المعوق له وهو لايحصل ويبقى إلا بمشيئة الله تعالى .

ولهذا قيل : الالتفات إلى الأسباب شرك فى التوحيد ، ومحو الأسباب ان تكون أسبابا نقص فى العقل ؟ والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح فى الشرع ولهذا قال – تعالى – : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴾ (١) فأمر بأن تكون الرغبة إليه وحده ، وقال : ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (٢) فالقلب لايتوكل إلا على من يرجوه ، فمن رجا قوته او عمله او علمه او حاله أو صديقه أو قرابته أو شيخه أو ملكه أو ماله غير ناظر إلى الله كان فيه نوع توكل على ذلك السبب ، وما رجا أحد مخلوقاً أو توكل عليه إلا خاب ظنه فيه ، فانه مشرك : ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ (٣) .

وكذلك المشرك يخاف المخلوقين ، ويرجوهم ، فيحصل له رعب كما قال – تعالى – :﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ﴾ (٤) والخالص من الشرك يحصل له الأمن كما قال – تعالى – ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ (٥) وقد فسر النبى – الله صلى الله عليه وسلم – الظلم هنا بالشرك ففى الصحيح عن ابن مسعود (٦) : « أن هذه الآية لما نزلت شَقَّ ذَلِكَ على

---

(١) الآيتان : ٧ ، ٨ من سورة الشرح .
(٢) جزء من الآية ٢٣ من سورة المائدة .
(٣) جزء من الاية : ٣١ من سورة الحج
(٤) جزء من الآية : ١٥١ من سورة آل عمران
(٥) الآية : ٨٢ من سورة الأنعام .
(٦) سبقت الترجمة .

أصحاب النبيِّ – صلى الله عليه وسلم – وقالوا : أيُّنا لَمْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ؟ فقال النبي – صلى الله عليه وسلم –:« **إِنَّمَا هَذَا الشِّرْكُ** (١) ، **أَلَمْ تَسْمَعُوا إِلَى قَوْلِ الْعَبْدِ الصَّالِحِ** : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (٢) » .

وقال – تعالى – : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ (٣) وقال – تعالى – : ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ (٤) ولهذا يذكر الله الأسباب ، و يأمر بأن لايعتمد عليها ، ولايرجى إلا الله ، قال – تعالى – لما أنزل الملائكة : ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ ۗ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ (٥) وقال : ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ

---

(١) رواه البخارى عن عبد الله ، ورواه أحمد عنه ، وفى روايته : « **إنه ليس الذى تعنون ، ألم تسمعوا ماقال العبد الصالح** : « (**يابنى لاتشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم إنما هو الشرك** » ورواه ابن أبى حاتم عن عبد الله كذلك ، وفى روايته « ليس كما تظنون ، إنما قال لابنه (الآية) » وهو فى (مشكاة المصابيح) للتبريزى بتحقيق الألبانى رقم ٥١٣١ (٣/١٤١٩) وقال : متفق عليه .

(٢) جزء من الآية : ١٣ من سورة لقمان

(٣) الآيات : ١٦٥ – ١٦٧ من سورة البقرة .

(٤) الآيتان : ٥٦ ، ٥٧ من سورة الإسراء .

(٥) الآية : ١٢٦ من سورة آل عمران .

﴿فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ (١)

وقد قدمنا أن الدعاء نوعان :

دعاء عبادة ، ودعاء مسألة .

وكلاهما لايصلح إلا لله فمن جعل مع الله إلهًا آخر قعد مذموما مخذولاً ، والراجى سائل طالب فلا يصلح أن يرجو إلا الله ، ولايسأل غيره ، ولهذا قال النبى – صلى الله عليه وسلم – فى الحديث الصحيح : « **مَا أَتَاكَ مِنْ هَذَا الْمَالِ وَأَنْتَ غَيْرُ سَائِلٍ وَلَا مُشْرِفٍ فَخُذْهُ ، وَمَالَا فَلَا تُتْبِعْهُ نَفْسَكَ** » (٢) فالمشرف الذى يستشرف بقلبه ، والسائل الذى يسأل بلسانه ، وفى الحديث الذى فى الصحيحين عن أبى سعيد الخدرى (٣) : قال : أصابتنا فاقة فجئت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لأسأله فوجدته يخطب الناس وهو يقول : « **أَيُّهَا النَّاسُ وَاللهِ مَهْمَا يَكُنْ عِنْدَنَا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ نَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ ، وَإِنَّهُ مَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللهُ ، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللهُ ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ ، وَمَا أُعْطِىَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْراً وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ** » (٤) .

و(الاستغناء) : أن لايرجو بقلبه أحداً فيستشرف إليه ، و(الاستعفاف) أن لايسأل بلسانه أحداً ، ولهذا لما سئل أحمد بن حنبل (٥) عن التوكل فقال : قطع الاستشراف إلى الخلق ، أى : لايكون فى قلبك أن أحدا يأتيك بشىء ، فقيل

---

(١) الآية ١٦٠ من سورة آل عمران .

(٢) رواه النسائى عن عمر ، وصححه الألبانى فى (صحيح الجامع الصغير) رقم ٥٥٠٤ (٩٦٦/٢) .

(٣) هو ابو سعيد : سعد بن مالك بن سنان الخدرى الأنصارى الخزرجى ..صحابى من ملازمى الرسول – صلى الله عليه وسلم – غزا اثنتى عشرة غزوة ، وله ١١٧٠ حديثا ، و لد وتوفى بالمدينة المنورة (١٠ ق . هـ/٦١٣ م – ٧٤ هـ/٦٩٣ م)[انظر ترجمته فى تهذيب التهذيب ٤٧٩/٣ وصفه الصفوة ٢٩٩/١ وحلية الأولياء ٣٦٩/١] الأعلام للزركلى ٨٧/٣ .

(٤) متفق عليه .. رواه البخارى فى (كتاب الرقاق) ٢٠ ، وفى (كتاب الزكاة) ١٨ ، ٥٠ ، ورواه مسلم فى (كتاب الزكاة) ١٢٤ ، وأبو داود فى (الزكاة) ٢٨ ، والترمذى (كتاب البر) ٧٦ حديث رقم ٢١١٠ ، والنسائى.(كتاب الزكاة) ٨٥ ، ٨٩ وأورده الألبانى فى (صحيح سنن الترمذى) رقم ١٦٤٧ ج ١٩٨/٢

(٥) سبقت الترجمة .

له : فما الحجة فى ذلك ؟ فقال : قول الخليل لما قال له جبرائيل : هل لك من حاجة ؟ فقال : « أَمَّا إِلَيْكَ فَلَا » [1] .

فهذا ومايشبهه مما يبين أن العبد فى طلب ماينفعه ودفع مايضره لايوجه قلبه إلا إلى الله ، فلهذا قال المكروب : ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ ﴾ [2] ومثل هذا مافى الصحيحين عن ابن عباس [3] أن النبى – صلى الله عليه وسلم – كان يقول عند الكرب : « لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ ، لَاإِلَٰهَ إِلَّا اللهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ، لَاإِلَٰهَ إِلَّا اللهُ رَبُّ السَّمَٰوَاتِ وَرَبُّ الْأَرْضِ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ » [4] فإن هذه الكلمات فيها تحقيق التوحيد ، وتألُّهِ العبد ربه ، وتعلق رجائه به وَحْدَهَ لاشريك له ، وهى لفظ خبر يتضمن الطلب .

والناس وإن كانوا يقولون بألسنتهم : لا إلٰه إلا الله ، فقول العبد لها مخلصا من قلبه له حقيقة أخرى ، وبحسب تحقيق التوحيد تكمل طاعة الله قال – تعالى : ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [5] فمن جعل ما يألهه هو مايهواه فقد اتخذ إلٰهه هواه ، أى : جعل معبوده هومايهواه ، وهذا حال المشركين الذين يعبد أحدهم مايستحسنه ، فهم يتخذون أندادا من دون الله يحبونهم كحب الله ، ولهذا قال الخليل [6] : ﴿ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ ﴾ [7] . .

فإن قومه لم يكونوا منكرين للصانع ، ولكن كان أحدهم يعبد مايستحسنه ويظنه نافعا له كالشمس والقمر والكواكب ، والخليل بيَّن أن الآفل يغيب عن

---

(١) سبق تخريجه .
(٢) جزء من الآية ٨٧ من سورة الأنبياء
(٣) سبقت الترجمة
(٤) متفق عليه من حديث عبدالله بن مسعود – رضى الله عنه – وهو فى (مشكاة المصابيح) للتبريزى برقم ٢٤١٧ ج ٢ /٧٤٨ ، وفى (شرح العقيدة الطحاوية) برقم ٢٩٣ (٢٧٧) .
(٥) الايتان ٤٣ و٤٤ من سورة الفرقان .
(٦) أبو الأنبياء : – إبراهيم – عليه السلام –
(٧) جزء من الآية : ٧٦ من سورة الأنعام .

عابده وتحجبه عنه الحواجب فلا يرى عابده ولايسمع كلامه ولا يعلم حاله ولاينفعه ولا يضره بسبب ولاغيره ، فأى وجه لعبادة من يأفل ؟!

وكلما حقق العبد الإخلاص فى قوله : لا إلـه إلا الله خرج من قلبه تأله مايهواه ، وتصرف عنه المعاصى والذنوب كما قال - تعالى. ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوٓءَ وَالْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾[1] فعلل صرف السوء والفحشاء عنه بانه من عباد الله المخلصين ، وهؤلاء هم الذين قال فيهم : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾[2] وقال الشيطان : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾[3] وقد ثبت فى الصحيح عن النبى - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « **مَنْ قال لَا إلَهَ إلّا الله مُخْلِصاً مِنْ قَلْبِهِ حَرَّمَهُ الله عَلَى النَّارِ** »[4]

فإن الإخلاص ينفي أسباب دخول النار ، فمن دخل النار من القائلين لا إلـٰه إلا الله لم يحقق إخلاصها المحرِّمَ له على النار ، بل كان فى قلبه نوع من الشرك الذى أوقعه فيما أدخله النار ، والشرك فى هذه الأمة أخفي من دبيب النمل[5] ، ولهذا كان العبد مأمورا فى كل صلاة أن يقول : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ والشيطان يأمر بالشرك ، والنفس تطيعه فى ذلك ، فلا تزال النفس تلتفت إلى غير الله ؛ إما خوفا منه ، وإما رجاء له فلا يزال العبد مفتقرا إلى تخليص توحيده من

---

(١) جزء من الآية رقم ٢٤ من سورة يوسف .

(٢) ذكرت مرة فى الآية رقم ٤٢ من سورة الحجر ، ومرة أخرى فى الآية رقم ٦٥ من سورة الإسراء .

(٣) جزء من الآية ٨٢ ، والآية ٨٣ كاملة من سورة ص .

(٤) رواه ابن النجار عن انس بن مالك - رضى الله عنه - ونصه : « **من قال لا إله إلا الله مخلصاً دخل الجنة** » ورواه البزار عن أبى سعيد ، وصححه الألبانى فى (صحيح الجامع الصغير) رقم ٦٤٣٣ (١٠٩٨/٢) وهو فى (كنز العمال) رقم ٢٠٣ (٦٠/١) و١٧٧٩ (٤١٨/١) .

(٥) روى الحكيم فى حديث صحيح عن ابن عباس مرفوعا « **الشِّرْكُ فى أُمَّتى أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ عَلَى الصَّفَا** » صححه الألبانى فى (صحيح الجامع) برقم ٣٧٣٠ (٦٩٣/١) ، وروى نحوه الحكيم أيضا عن ابى بكر ، وصححه الألبانى كذلك فى (صحيح الجامع الصغير) برقم ٣٧٣١ (٦٩٤/١) .

شوائب الشرك ، وفى الحديث الذى رواه ابن أبى عاصم[1] وغيره عن النبى – صلى الله عليه وسلم – أنه قال : « **يقول الشيطان : أهلكت الناس بالذنوب وأهلكونى بلا إله إلا الله والاستغفار ، فلما رأيت ذلك بَثَثْتُ فيهم الأهواء ، فهم يذنبون ولا يستغفرون ، لأنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا** »[2].

فصاحب الهوى الذى اتبع هواه بغير هدى من الله له نصيب ممن اتخذ إلهه هواه ، فصار فيه شرك منعه من الاستغفار . وأما من حقق التوحيد والاستغفار فلابد أن يرفع عنه الشر ، فلهذا قال ذو النون ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[3].

---

(1) هو أبو بكر بن ابى عاصم : أحمد بن عمرو بن أبى عاصم الضحاك بن مخلد الشيبانى : عالم بالحديث ، زاهد ، رحالة ، من أهل البصرة اشتغل بالقضاء مدة وله تصانيف كثيرة من أشهرها (المسند الكبير) يحتوى على ٥٠ ألف حديث ، وعاش زهاء الثمانين عاما مابين (٢٠٦ هـ/٨٢٢ م) و(٢٨٧ هـ/٩٠٠ م) [انظر ترجمته فى : البداية والنهاية ١١/٨٤ ، وتذكرة الحفاظ ٢/١٩٣] الأعلام للزركلى ١/١٨٩ .

(2) رواه ابن أبى عاصم فى (السنة) (١/٩) ونقله عنه المنذرى فى (الترغيب والترهيب) (١/٨٧) وأخرجه أبو يعلى فى مسنده (١/٤٣) وقال الألبانى : إسناده موضوع آفته عبد الغفور ، قال البخارى : تركوه ، وقال ابن حبان : كان ممن يضع الحديث ص ١٠ من (السنة) لابن أبى عاصم ، ط المكتب الإسلامى .

(3) جزء من الآية : ٨٧ من سورة الأنبياء

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

*الفتوى الثانية (١٣٦ - ١٤١/٨) :

وقال - رحمه الله - ضمن جوابه فى فتواه الطويلة المعروفة بـ (أقوم ماقيل فى القضاء والقدر والحكمة والتعليل) كلاما فى غاية الجودة عن إثبات الأسباب ، قال :

ومن قال : إن قدرة العبد وغيرها من الأسباب التى خلق الله - تعالى - بها المخلوقات ليست أسبابا ، أو أن وجودها كعدمها ، وليس هناك إلا مجرد اقتران عادى كاقتران الدليل بالمدلول ، فقد جحد مافى خلق الله وشرعه من الأسباب والحكم والعلل ، ولم يجعل فى العين قوة تمتاز بها عن الخد تبصر بها ، ولا فى القلب قوة يمتاز بها عن الرجل يعقل بها ، ولا فى النار قوة تمتاز بها عن التراب تحرق بها ، وهؤلاء ينكرون مافى الأجسام المطبوعة والغرائز .

قال بعض الفضلاء : تكلم قوم من الناس فى إبطال الأسباب والقوى والطبائع فأضحكوا العقلاء على عقولهم .

ثم إن هؤلاء يقولون : لاينبغى للإنسان أن يقول : إنه شبع بالخبز وروى بالماء ، بل يقول : شبعت ورويت عنده ، فإن الله يخلق الشبع والرى ونحو ذلك من الحوادث عند هذه المقترنات بها عادة ، لابها . وهذا خلاف الكتاب والسنة فإن الله - تعالى - يقول : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ ﴾ (١) الآية وقال - تعالى - : ﴿ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ﴾ (٢)

(١) جزء من الآية : ٥٧ من سورة الأعراف .

(٢) جزء من الآية : ١٦٤ من سورة البقرة .

وقال – تعالى – : ﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾[1] وقال :
﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ
ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ ﴾[2] وقال : ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ
مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴾[3] وقال – تعالى – :
﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾[4]
وقال – تعالى – : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا
أَلْوَٰنُهَا ۚ ﴾[5] وقال – تعالى – : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ
شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ
وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ ﴾[6] وقال – تعالى – : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ
لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا ﴾ الى قوله : ﴿ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى
بِهِۦ كَثِيرًا ۚ ﴾[7] وقال : ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ
مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ ﴾[8]
ومثل هذا فى القرآن كثير .

وكذلك فى الحديث عن النبىّ – صلى الله عليه وسلم – كقوله : « **لَا يَمُوتَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِلَّا آذَنْتُمُونِى بِهِ حَتَّى أُصَلِّىَ عَلَيْهِ ؛ فَإِنَّ اللهَ جَاعِلٌ بِصَلَاتِى عَلَيْهِ بَرَكَةً وَرَحْمَةً** »[9] وقال – صلى الله عليه وسلم – : « **إِنَّ هَذِهِ الْقُبُورَ مَمْلُوءَةٌ**

(1) جزء من الآية : ١٤ من سورة التوبة .
(2) جزء من الآية : ٥٢ من سورة التوبة .
(3) جزء من الآية : ٢٧ من سورة فاطر .
(4) الآية : ١٠ ، وجزء من الآية : ١١ من سورة النحل .
(5) انظر الآية : ٢٦ من سورة البقرة .
(6) جزء من الآيتين ، ١٥ ، ١٦ من سورة المائدة .
(7) رواه أحمد (٤ذ٣٨٨) عن يزيد بن ثابت ونصه : « **لايموتن فيكم ميت ماكنت بين أظهركم إلا آذنتمونى به ، فإن صلاتى عليه رحمة** » وهو فى (كنز العمال) رقم ٤٢٣٠٣ (٥٨٦/١٥) وقد أخرجه عنه أيضا النسائى (٢٨٤/١) ، وابن ماجه (١٥٢٨) وابن أبى شيبة (١٤٩/٤) ، والبيهقى .. وصححه الألبانى فى (إرواء الغليل) رقم ٧٣٦/١ (١٨٥/٣) .
(8) الآية : ٩ من سورة ق .
(9) جزء من الآية : ٩٩ من سورة الأنعام .

عَلَى أَهْلِهَا ظُلْمَةً وَإِنَّ اللهَ جَاعِلٌ بِصَلَاتِي عَلَيْهِم نُوراً ».[1] ومثل هذا كثير

ونظير هؤلاء الذين أبطلوا الأسباب المقدرة فى خلق الله من أبطل الأسباب المشروعة فى أمر الله ، كالذين يظنون أن مايحصل بالدعاء والأعمال الصالحة وغير ذلك من الخيرات إن كان مقدرا حصل بدون ذلك ، وإن لم يكن مقدرا لم يحصل بذلك وهؤلاء كالذين قالوا للنبى – صلى الله عليه وسلم – : « **أَفَلَا نَدَعُ الْعَمَلَ وَنَتَّكِلَ عَلَى الْكِتَابِ** ؟ » فقال : « **لَا ؛ اعْمَلُو فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ** » [2].

وفى السنن أنه قيل : يارسول الله : أرايت أدوية نتداوى بها ، ورق نسترق بها وتقاة نتقيها ، هل ترد من قدر الله شيئا ؟ فقال : « **هِيَ مِنْ قَدَرِ اللهِ** » [3] ولهذا قال من قال من العلماء : الالتفات إلى الأسباب شرك فى التوحيد ، ومحو الأسباب أن تكون أسبابا تغيير فى وجه العقل ، والإعراض عن الأسباب بالكلية قَدْحٌ فى الشرع .

والله سبحانه – خلق الأسباب والمسّببات ، وجعل هذا سبا لهذا ، فإذا قال القائل : إنْ كان هذا مقدَّرا حصل بدون السبب وإلا لم يحصل ، جوابه : أنه مقدر بالسبب وليس مقدرا بدون السبب : كما قال النبى – صلى الله عليه وسلم – : « **إِنَّ اللهَ خَلَقَ لِلْجَنَّةِ أَهْلاً خَلَقَهُمْ لها وَهُمْ فِى أَصْلَابِ آبَائِهِمْ وَخَلَقَ للنار أَهْلاً خَلَقَهُمْ لَهَا وَهُمْ فِى أَصْلَابِ آبَائِهِمْ** » [4] .

وقال – صلى الله عليه وسلم – : « **اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ ، أَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَة فَسَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ فَسَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ** » [5] .

---

(١) رواه مسلم (٥٦/٣) والبيهقى (٤٧/٤) وأحمد (٣٨٨/٢) عن ابى هريرة . وهو فى (إرواء الغليل) رقم ١/٧٣٦ (١٨٤/٣) .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) سبق تخريجه .

(٤) أخرجه مسلم (٥٤/٨ ، ٥٥)، وأبو داود (٤٧١٣) ، والنسائى فى (الجنائز) ، وابن ماجه (٨٢) ، وأحمد (٤١/٦ ، ٢٠٨) عن عائشة مرفوعا ، وهو فى (سلسلة الأحاديث الصحيحة) للألبانى رقم ١٨٣٠ الجزء الرابع (٤٤٦) .

(٥) رواه الشيخان والطبرانى وأحمد وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه من مسند على – رضى الله عنه – وهو فى (كنز العمال) رقم ١٥٥٢ (٣٤٢/١) .

وفى الصحيحين عن ابن مسعود [1] – رضى الله عنه – قال : حدثنا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهو الصادق المصدوق : « **إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِى بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْماً نُطْفَةً ، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ يُرْسَلُ إِلَيْهِ الْمَلَكُ فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ : فَيَقَالُ : اكْتُبْ رِزْقَهُ ، وَعَمَلَهُ ، وأَجَلَهُ ، وَشَقِىٌّ أَوْ سَعِيدٌ ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ قَالَ : فَوَالَّذِى نَفْسى بِيَدِهِ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَايَكُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيه الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا ، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حتى مَايَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا** » [2] .

فبين – صلى الله عليه وسلم – أن هذا يدخل الجنة بالعمل الذى يعمله ويختم له به ، و هذا يدخل النار بالعمل الذى يعمله ويختم له به ، كما قال – صلى الله عليه وسلم : « **إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالْخَوَاتِيمِ** » [3]

وذلك لأن جميع الحسنات تحبط بالردة ، وجميع السيئات تغفر بالتوبة ، ونظير ذلك من صام ثم أفطر قبل الغروب ، أو صلى وأحدث عمدا قبل كمال الصلاة بطل عمله .

بالجملة فالذى عليه سلف الأمة وأئمتها مابعث الله به رسله وأنزل كتبه فيؤمنون بخلق الله وامره ، بقدره وشرعه ، بحكمه الكونى وحكمه الدينى ، وإرادته

---

(١) سبقت الترجمة .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) رواه البخارى فى (كتاب القدر) وهو فى (الفتح) رقم ٦٦٠٧ (٥٠٧/١١) وقال الحافظ : (وقع فى حديث أنس عند الترمذى وصححه) : « **إذا آراد الله بعبد خيرا استعمله – يوفقه لعمل صالح ثم يقبضه عليه** » . وأخرجه أحمد من هذا الوجه مطولاً وأوله « **لاتعجبوا لعمل عامل حتى تنظروا بم يختم له** » . واخرجه الطبرانى من حديث أبى امامة مختصرا ، واخرج البزار من حديث ابن عمر حديثا فيه ذكر الكتابين فى آخره : (العمل بخواتيمه ، العمل بخواتيمه) أ . هـ . وهو عند أبى داود من مسند سهل بن سعد « وإنما الأعمال بالخواتيم » : انظر (كنز العمال) رقم ١٥٧٤ (٣٥٣/١) . كذا روى ابن جرير من مسند ابن عمر حديث « العمل بخواتيمه » وهو فى (كنز العمال) رقم ١٥٧٦ (٣٥٤/١) وروى ابن عساكر عن معاوية « إنما الأعمال بخواتيمها » وهو فى (كنز العمال) رقم ٥٢٨٦ (٢٦/٣) :

الكونية والدينية ، كما قال فى الآية الأولى : ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ ﴾ [1] وقال نوح عليه السلام : ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ ﴾ [2] وقال – تعالى – فى الإرادة الدينية : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ [3] وقال : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [4] وقال : ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ ﴾ [5] .

وهم مع إقرارهم بأن الله خالق كل شيء وربه ومليكه ، وأنه خلق الأشياء بقدرته ومشيئته يقرون بأنه لا إله إلا هو ، لايستحق العبادة غيره ، ويطيعونه ويطيعون رسله ، ويحبونه ويرجونه ويخشونه ، ويتكلون عليه وينيبون إليه ، ويوالون أولياءه ، ويعادون أعداءه ، ويقرون بمحبته لما أمر به ولعباده المؤمنين ورضاه بذلك وبغضه لما نهى عنه ، وللكافرين وسخطه لذلك ومقته له ، ويقرون بما استفاض عن النبى – صلى الله عليه وسلم – من « **أَنَّ اللهَ أَشَدُّ فَرَحاً بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ التَّائِبِ مِنْ رَجُلٍ أَضَلَّ راحِلَتَهُ بِأَرْضٍ دَوِّيَّةٍ مُهْلِكَةٍ عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فَطَلَبَها فَلَمْ يَجِدْهَا ، فَقَالَ تَحْتَ شَجَرَةٍ ، فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ إِذَا بَدَابَّتِهِ عَلَيْهَا طَعَامُهُ**

---

(١) جزء من الآية ١٢٥ من سورة الأنعام .
(٢) جزء من الآية : ٣٤ من سورة هود .
(٣) جزء من الآية : ١٨٥ من سورة البقرة .
(٤) الآية : ٢٦ من سورة النساء .
(٥) جزء من الآية : ٦ من سورة المائدة .

وشَرَابُهُ ، فَاللهُ أَشَدُّ فَرَحاً بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِن هَذا بِرَاحِلَتِهِ » [1] .

فهو إلههم الذى يعبدونه وربهم الذى يسألونه كما قال – تعالى – : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [2] فهو المعبود المستعان .

(١) رواه الشيخان عن ابن مسعود – رضى الله عنه – مرفوعا : « لله أفرح بتوبة عبده المؤمن من رجل نزل فى أرض دَوِّيَّة مهلكة ، معه راحلته عليها طعامه وشرابه فوضع رأسه فنام نومة ، فاستيقظ وقد ذهبت راحلته فطلبها حتى إذا اشتد عليه الحر والعطش أو ماشاء الله ، قال : أرجع إلى مكانى الذى كنت فيه فأنام حتى أموت ، فوضع رأسه على ساعده ليموت ، فاستيقظ ، فإذا راحلته عنده عليها زاده وشرابه ، فالله أشد فرحا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته وزاده » وروى نحوه مسلم عن أبى حمزة أنس بنماللك – رضى الله عنه – مرفوعا : « الله أشد فرحا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه ، فأيس منها ، فأتى شجرة فاضطجع فى ظلها ، قد أيس من راحلته ، فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها ، ثم قال – من شدة الفرح – اللهم أنت عبدى وأنا ربك ! أخطأ من شدة الفرح » وهو فى (صحيح الجامع الصغير) للألبانى برقم ٥٠٣٠ (٢ / ٨٩٨) .
وروى حدث ابن مسعود احمد والترمدى ، ورواه الترمدى وابن ماجه مختصرا عن أبى هريرة ، فانظر (صحيح الجامع) رقم ٥٠٣٢ ، و٥٠٣٤ (٢/٨٩٨) .

(٢) الايات الاولى من سورة الفاتحة .

* **الفتوى الثالثة (٥١٩ - ٨/٥٢٣) :**

وتكلم شيخ الإسلام - رحمه الله - فأجاد وأفاد - جزاه الله خيرا - فى بيان أثر الأسباب فى الغلاء والرخص حين سئل : عن الغلاء والرخص : هل هما من الله - تعالى - أم لا ؟ .

فأجـــاب :

جميع ماسوى الله من الأعيان وصفاتها وأحوالها مخلوقة لله ، مملوكة لله ، هو ربها وخالقها ومليكها ومدبرها ، لا رب لها غيره ،.ولا إله سواه ، له الخلق والأمر ، لاشريك له فى شيء من ذلك ، ولامعين ، بل هو كما قال - سبحانه - : ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ (٢٢) وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ [١] .

اخبر - سبحانه - أن مايدعى من دونه ليس له مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، ولاشرك فى ملك ، ولا إعانة على شيء وهذه الوجوه الثلاثة : هى التى ثبت بها حق الغير ، فإنه اما أن يكون مالكا للشيء مستقلّا بملكه ، أو يكون مشاركا له فيه نظير أو لَا ذَا ولاذاك ، فيكون معينا لصاحبه : كالوزير والمشير والمعلم و المنجد والناصر ، فبين - سبحانه - أنه ليس لغيره ملك لمثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، ولا لغيره شرك فى ذلك لاقليل ولاكثير ، فلا يملكون شيئا ، ولا لهم شرك فى شيء ، ولا له - سبحانه - ظهير : وهو المظاهِرُ المعاوِنُ ، فليس له وزير ولا مشير ولاظهير .

---

(١) الاية : ٢٢ وجزء من الآية : ٢٣ من سورة سبأ

وهذا كما قال – سبحانه – : ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ (١) فإن المخلوق يوالى المخلوق لذله ، فإذا كان له من يواليه عز بوليه ، والرب – تعالى – لايوالى أحداً لذلته – تعالى – بل هو العزيز بنفسه و﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ (٢) وإنما يوالى عباده المؤمنين لرحمته ونعمته وحكمته ، وإحسانه وجوده وفضله وإنعامه .

وحينئذ : فالغلاء بارتفاع الأسعار ، والرخص بانخفاضها ، هما من جملة الحوادث التى لاخالق لها إلا الله وحده ، ولايكون شيء منها إلا بمشيئته وقدرته ، لكن هو – سبحانه – قد جعل بعض أفعال العباد سببا فى بعض الحوادث ، كما جعل قتل القاتل سببا فى موت المقتول ، وجعل ارتفاع الأسعار قد يكون بسبب ظلم العباد ، وانخفاضها قد يكون بسبب إحسان بعض الناس ، ولهذا أضاف من أضاف من القدرية المعتزلة وغيرهم الغلاء والرخص إلى بعض الناس ، وبنوا على ذلك أصولاً فاسدة .

(أحدها) : أن أفعال العباد ليست مخلوقة لله تعالى .

و(الثانى) : أن مايكون فعل العبد سببا له يكون العبد هو الذى أحدثه .

و(الثالث) : أن الغلاء والرخص إنما يكون بهذا السبب .

وهذه الأصول باطلة ؛ فإنه قد ثبت أن الله خالق كل شيء من أفعال العباد وغيرها ، ودلت على ذلك الدلائل الكثيرة السمعية والعقلية ، وهذا متفق عليه بين سلف الأمة وأئمتها ، وهم مع ذلك يقولون : إن العباد لهم قدرة ومشيئة ، وأنهم فاعلون لأفعالهم ، ويثبتون ماخلقه الله من الأسباب ، وماخلق الله من الحكم .

و(مسألة القدر) مسألة عظيمة ، ضل فيها طائفتان من الناس : (طائفة) أنكرت أن يكون الله خالقا لكل شيء ، وأنه ماشاء كان ومالم يشأ لم يكن ، كما

---

(١) الآية : ١١١ من سورة الإسراء .

(٢) جزء من الآية : ١٠ من سورة فاطر .

أنكرت ذلك المعتزلة . و(طائفة) أنكرت أن يكون العبد فاعلاً لأفعاله ، وأن تكون لهم قدرة لها تأثير فى مقدورها ، أو أن يكون فى المخلوقات ماهو سبب لغيره ، وأن يكون الله خلق شيئا لحكمة ، كما أنكر ذلك الجهم بن صفوان (١) ومن اتبعه من المجبرة الذى نسب كثير منهم إلى السنة ، والكلام على هذه المسألة مبسوط فى مواضع أخر .

و(الأصل الثانى) : وهو : أن ما كان فعل العبد أحد أسبابه : كالشبع الذى يكون بسبب الأكل ، وزهوق النفس الذى يكون بالقتل ، فهذا قد جعله أكثر المعتزلة فعلا للعبد ، والجبرية لم يجعلوا لفعل العبد فيه تأثيرا ، بل ماتيقنوا أنه سبب ، قالوا : إنه عنده لا به ، وأما السلف والأئمة فلا يجعلون العبد فاعلاً لذلك ، كفعله لما قام به من الحركات ، فلا يمنعون أن يكون مشاركا فى أسبابه ، وأن يكون الله جعل فعل العبد مع غيره أسبابا فى حصول مثل ذلك .

وقد ذكر الله فى كتابه النوعين بقوله : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٢) والإنفاق والسير هو نفس اعمالهم القائمة بهم ، فقال فيها : إلا كتب لهم ، ولم يقل إلا كتب لهم به عمل صالح ، فإنها نفسها عمل ، فنفس

---

(١) هو أبو محمد : جهم بن صفوان السمرقندى ، من موالى بنى راسب ، إليه تنسب فرقة (الجهمية) أو (الجبرية) التى ترى أن الإنسان مجبر على أفعاله ، مُسَيَّر لا مُخَيَّر ، وتنفى الصفات ، قال عنه الذهبى : الضال المبدع ، هلك فى زمان صغار التابعين وقد زرع شرا عظيما . استعمله الحارث بن سريج الخارج على أمراء خراسان الامويين ، فظفر به نصر بن يسار وقتله بمرو على شط نهر بلخ سنة (١٢٨ هـ/٧٤٥ م) [انظر ترجمته فى ميزان الاعتدال ١٩٧/١ ، والكامل لابن الأثير (حوادث سنة ١٢٨) ولسان الميزان ١٤٢/٢) الأعلام للزركلى ج ١٤١/٢ .

(٢) جزء من الآية : ١٢٠ ، والآية ١٢١ من سورة التوبة

كتابتها يحصل به المقصود ، بخلاف الظمأ والنَّصَبِ والجوع الحاصل بغير الجهاد ، بخلاف غيظ الكفار بما نيل منهم ، فإن هذه ليست نفس أفعالهم ، وإنما هي حادثة عن أسباب منها : أفعالهم ، فلهذا قال – تعالى – ﴿ إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ﴾ .

فتبين أن ما يحدث من الاثار عن أفعال العباد لهم بها عمل ، لأن أفعالهم لهم كانت سببا فيها ، كما قال – صلى الله عليه وسلم – « **مَنْ دعَاَ إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنِ اتَّبَعَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجورِهِمْ شَيْءٌ ، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْوِزْرِ مِثْلُ أَوْزَارِ مَنِ اتَّبَعَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ** » [١] .

و(الأصل الثالث) : أن الغلاء والرخص لاتنحصر أسبابه فى ظلم بعض ، بل قد يكون سببه قلة مايخلق ، أو يجلب من ذلك المال المطلوب ، فإذا كثرت الرغبات فى الشيء وقل المرغوب فيه : ارتفع سعره ، فإذا كثر وقلت الرغبات فيه انخفض سعره ، والقلة والكثرة قد لاتكون بسبب من العباد ، وقد تكون بسبب لا ظلم فيه ، وقد تكون بسبب فيه ظلم ، والله – تعالى – يجعل الرغبات فى القلوب فهو – سبحانه – كما جاء فى الأثر : « قد تغلو الأسعار والأهواء غزار ، وقد ترخص الأسعار والأهواء فقار » .

(١) رواه مسلم (٦٢/٨) وأبو داود (٢٦٢/٢) ، والترمذى (١١٢/٢) ، والدارمى (١٢٦/١ ، ١٢٧) ، وابن ماجه (٩١/١) ، وأحمد (٣٩٧/٢) من حديث أبى هريرة مرفوعا ، وقال الترمذى : حديث حسن صحيح ، كما أورده الألبانى فى (سلسلة الأحاديث الصحيحة) رقم ٨٦٥ (٤٤٥/٢) ، وفى لفظ الحديث : « لاينقص ذلك » بدلاً « من غير أن ينقص » .

* الفتوى الرابعة (٢٨٧ - ٢٨٨ / ٩) .

وتطرق - رحمه الله - فى فتواه الطويلة المسماة (بمسألة فى العقل والنفس) الى حديث فى (إثبات الأسباب) قال :

ومن الناس من ينكر القوى والطبائع كما هو قول أبى الحسن [١] ومن اتبعه من أصحاب مالك [٢] والشافعى [٣] وأحمد [٤] وغيرهم ، وهؤلاء المنكرون للقوى والطبائع ينكرون الأسباب أيضاً ويقولون : إن الله يفعل عندها لابها ، فيقولون : إن الله لايُشْبِعُ بالخبز ولايَرْوِى بالماء ولايُنْبِتُ الزرع بالماء ، بل يفعل عنده لابه ، وهؤلاء خالفوا الكتاب والسنة وإجماع السلف مع مخالفة صريح العقل والحس، فإن

---

(١) أبو الحسن : على بن إسماعيل بن إسحاق (الأشعرى) ، مؤسس مذهب الأشاعرة ، من أئمة المتكلمين المجتهدين ، كان معتزليا ثم خالف المعتزلة وجاهر بخلافهم . ولد بالبصرة (٢٦٠ هـ/٨٧٤م) وتوفى ببغداد (٣٢٤ هـ/٩٣٦م). [انظر ترجمته فى : طبقات الشافعية ٢٤٥/٢ ، والمقريزى ٣٥٩/٢ ، وابن خلكان ٣٢٦/١ ، والبداية والنهاية ١٨٧/١١ ، ودائرة المعارف الإسلامية ٢١٨/٢] الأعلام للزركلى ج ٢٦٣/٤ .

(٢) أبو عبد الله : مالك بن أنس بن مالك الأصبحى الحميرى .. أحد الأئمة الأربعة الأعلام ، صاحب (الموطأ) الذى وضعه لما سأله المنصور أن يضع كتابا للناس يحملهم على العمل به ، كان مشهوداً له بالدين والصلابة ، ولد ومات بالمدينة (٩٣ - ١٧٩ هـ/٧١٢ - ٧٩٥م) [انظر ترجمته فى : الوفيات ٤٣٩/١ ، وتهذيب التهذيب ٥/١٠ ، وصفة الصفوة ٩٩/٢ ، وحلية الأولياء ٣١٦/٦] الأعلام للزركلى ٢٥٧/٥ .

(٣) أبو عبد الله : محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع الهاشمى القرشى المطلبى ، أحد الأئمة الأربعة الأعلام ، ولد فى غزة (١٥٠ هـ/٧٦٧م) ونشأ فى مكة ، وزار بغداد مرتين قبل التوجه إلى مصر (١٩٩ هـ) حيث توفى بها (٢٠٤ هـ/٨٢٠م) ، اشتهر بالورع وسعة العلم وحدَّة الذكاء .. من أشهر مؤلفاته (الأم) فى الفقه [انظر ترجمته فى : تهذيب التهذيب ٢٥/٩ ، والوفيات ٤٤٧/١ ، وصفة الصفوة ١٤٠/٢ ، وحلية الأولياء ٦٣/٩ ، وطبقات الشافعية ١٨٥/١ ، والبداية والنهاية ٢٥١/١٠] الأعلام للزركلى ٢٦/٦ .

(٤) سبقت الترجمة .

الله قال فى كتابه : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [(1)] فأخبر أنه ينزل الماء بالسحاب ، ويخرج الثمر بالما . وقال – تعالى – : ﴿ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ [(2)] . وقال ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴾ [(3)] وقال : ﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾ [(4)] وقال : ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝١٥ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ [(5)] وقال : ﴿ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ ﴾ [(6)] ومثل هذا فى القرآن كثير .

والناس يعلمون بحسهم وعقولهم أن بعض الأشياء سبب لبعض ، كما يعلمون أن الشبع يحصل بالأكل لا بالعد ، ويحصل بأكل الطعام لا بأكل الحصى ، وأن الماء سبب لحياة النبات والحيوان ، كما قال : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾ [(7)] وأن الحيوان يروى بشرب الماء لا بالمشى ، ومثل ذلك كثير ، ولبسط هذه المسألة موضع اخر .

---

(1) الآية : ٥٧ من سورة الاعراف .

(2) جزء من الآية : ١٦٤ من سورة البقرة .

(3) الآية : ٩ من سورة ق .

(4) الآية : ١٤ من سورة التوبة .

(5) من الآيتين : ١٥ ، ١٦ من سورة المائدة

(6) من الآية : ٢٦ من سورة البقرة .

(7) جزء من الاية ٣٠ من سورة الأنبياء .

ثالثا : فى أن الدعاء من نوع الاسباب

* **الفتوى الأولى (٦٥ - ٧٧ / ٨) :**

سئل شيخ الإسلام تقى الدين ابو العباس عن الحديث الذى ورد « **إنَّ اللهَ قَبَضَ قَبْضَتَيْنِ ، فَقَالَ : هَذِهِ لِلْجَنَّةِ وَلَا أُبَالِي ، وهَذِهِ لِلنَّارِ وَلَا أُبَالِي** »[1] فهل هَذا الحديث صحيح ؟ والله قبضها بنفسه ، أو أمر أحدا من الملائكة بقبضها ؟ والحديث الآخر فى « **أَنَّ اللهَ لَمَّا خَلَقَ آدَمَ أَرَاهُ ذُرِّيَّتَهُ عَنِ اليَمِينِ وَالشِّمَالِ ، ثُمَّ قَالَ : هَؤُلَاءِ إِلَى النَّارِ وَلَا أُبَالِى ، وَهَؤُلَاءِ إِلَى الْجَنَّةِ وَلَا أُبَالِى** »[1] وَهَذا فى الصحيح ؟

فأجـــاب :

نعم ! هذا المعنى مشهور عن النبى – صلى الله عليه وسلم – من وجوه

---

(١) هذان القولان معنى لحديث بل لأحاديث عدة منها « **إن الله – عز وجل – قبض قبضة فقال : فى الجنة برحمتى ، وقبض قبضة فقال : فى النار ولا أبالى** » رواه أبو يعلى فى (مسنده) ٢ / ١٧١ ، والعقيلى فى (الضعفاء) (٩٣) وقال : وقد روى القبضتين احاديث صحيحه . وروى احمد (١٨٦/٤) ، وابن سعد فى (الطبقات) (١ / ٣٠ و ٧ / ٤١٧) ، وابن حبان فى صحيحه (١٨٠٦) ، والحاكم (١ / ٣١) : « **إن الله – عز وجل – خلق آدم ثم أخذ الخلق من ظهره وقال : هؤلاء إلى الجنة ولا أبالى ، وهؤلاء إلى النار ولا أبالى ، فقال قائل : يارسول الله فعلى ماذا نعمل ؟ قال : على مواقد القدر** » . وروى نحوه أحمد وابنه فى زوائد المسند (٤٤١/٦) ، وابن عساكر فى (تاريخ دمشق) (١/١٣٦/١٥) . وروى نحوه احمد (٦٨/٥) . وصحح الألبانى تلك الأحاديث فى (سلسلة الصحيحة) أرقام ٤٦ – ٥٠ ج ٦٨/١ – ٧١

متعددة ، مثل مافى موطأ مالك [1]، وسنن أبى داود [1] والنسائى [2]، وغيره عن مسلم بن يسار [3] وفى لفظ عن نعيم بن ربيعة [4] أن عمر بن الخطاب [5] سئل عن هذه الآية ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ﴾ [6] الآية فقال عمر : عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وفى لفظ : سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – سئل عنها : فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم : « **إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ بِيَمِينِهِ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً ، فَقَالَ : خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ لِلْجَنَّةِ ، وَبِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَعْمَلُونَ ، ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً ، فَقَالَ : خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ لِلنَّارِ وَبِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ يَعْمَلُونَ** » فَقَالَ رَجُلٌ : يَارَسُولَ اللهِ فَفِيمَ الْعَمَلُ ؟ فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « **إِنَّ اللهَ إِذَا خَلَقَ الرَّجُلَ لِلْجَنَّةِ اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، فَيُدْخِلُهُ الْجَنَّةَ ، وَإِذَا خَلَقَ الرَّجُلَ لِلنَّارِ اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ النَّارِ ، فَيُدْخِلُهُ بِهِ النَّارَ** » [7].

---

(١) سبقت الترجمة .

(٢) ابو عبد الرحمن النسائى : أحمد بن على بن شعيب بن على بن سنان بن بحر بن دينار (٢١٥ هـ/٨٣٠ م – ٣٠٣ هـ/٩١٥ م) القاضى الحافظ ، شيخ الإسلام ، أصله من نسا (بخراسان) استوطن مصر ثم فلسطين له فى المصنفات (السنن الكبرى) فى الحديث و(السنن الصغرى) من الكتب الستة فى الحديث ، وله (الضعفاء والمتروكون) فى علم الرجال وغيرها [انظر ترجمته فى : البداية والنهاية ١١/١٢٣ ، وطبقات الشافعية ٢/٨٣ وتذكرة الحفاظ ٢/٢٤١ وشذرات الذهب ٢/٢٣٩ وخلاصة تهذيب الكمال ١/٦] الأعلام للزركلى ج ١/١٧١ .

(٣) أبو عبدالله : مسلم بن يسار الأموى بالولاء ، فقيه ناسك ، من رجال الحديث ، كان مفتى البصرة على زمانه ، ولد فى مكة ، وتوفى بالبصرة سنة (١٠٨ هـ/٧٢٦ م) [انظر ترجمته فى : تهذيب التهذيب ١٠/١٤ ، وحلية الأولياء ٢/٢٩٠] الأعلام للزركلى ج ٧/٢٢٣

(٤) غير معروف ، لم اجده بعد طول البحث ، أسقط ذكره الإمام مالك من سند الحديث ، وقال ابن كثير : (الظاهر أن الإمام مالكا إنما أسقط ذكر نعيم بن ربيعة عمدا لما جهل حال نعيم ولم يعرفه فإنه غير معروف إلا فى هذا الحديث) : تفسير ابن كثير ٣/٢٤٧

(٥) سبقت الترجمة .

(٦) جزء من الآية : ١٧٢ من سورة الأعراف .

(٧) رواه مالك وأحمد وأبو داود والترمذى والحاكم ، وضعفه الألبانى إذ ذكره فى (ضعيف الجامع الصغير) رقم ١٦٠٢ (٨٨/١) ، وقال فى تخريجه لأحاديث (مشكاة المصابيح) : (رجال إسناده ثقات رجال الشيخين غير أنه منقطع بين مسلم بن يسار وعمر ، لكن له شواهد كثيرة) (٩٥ ج ٣٤/١) ، والقول بالانقطاع سببه أن مسلم بن يسار لم يسمع من عمر – رضى الله عنه – وبينهما نعيم بن ربيعة المجهول .

وفى حديث الحكم بن سفيان [١] عن ثابت [٢] عن أنس بن مالك [٣] قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « **إِنَّ اللهَ قَبَضَ قَبْضَةً فَقَالَ : إِلَى الْجَنَّةِ بِرَحْمَتِي ، وَقَبَضَ قَبْضَةً فَقَالَ : إِلَى النَّارِ وَلَا أُبَالِي** » [٤] وهذا الحديث ونحوه فيه فصلان .

(أحدهما) : القدر السابق ، وهو أن الله – سبحانه – علم أهل الجنة من أهل النار من قبل أن يعملوا الأعمال ، وهذا حق يجب الإيمان به ، بل قد نص الأئمة : كمالك [٥] والشافعي [٥] وأحمد [٥] أن من جحد هذا فقد كفر ، بل يجب الإيمان أن الله علم ماسيكون كله قبل أن يكون ويجب الإيمان بما أخبر به من أنه كتب ذلك ، وأخبر به قبل أن يكون كما فى صحيح مسلم [٥] عن عبد الله بن

---

(١) بل هو (الحكم بن سنان) وهو شخص آخر غير الحكم بن سفيان ، واسمه الحكم بن سنان الباهلى الأنصارى القربى أبو عون (مات سنة ١٩٠ هـ) قال ابن معين والنسائى : ضعيف . وقال البخارى عنده وهم كثير وليس له كثير إسناد . وقال ابن سعد : كان ضعيفا فى الحديث . وقال الآجرى عن أبى داود : ضعيف ، وقال البخارى فى (التاريخ الصغير) : لايكتب حديثه ، وقال الساجى : صدوق كثير الوهم أراه كذابا ، وقال ابن حبان : ممن تفرد عن الثقات بالأحاديث الموضوعات لايشتغل به ، وقال العقيلى : (فى حديثه عن ثابت عن أنس فى القبضتين – وهو هذا الحديث – لايتابع عليه

(٢) أبو محمد : ثابت بن أسلم البنانى ، روى عن ابن عمر وابن الزبير وأنس ، نقل الرازى فى الجرح والتعديل (١٠٨٥ ج ٢/٤٤٦) قول أحمد بن حنبل : ثابت ثبت فى الحديث عن الثقات المأمونين صحيح الحديث ونقل قول يحيى بن معين عن ثابت قال . بصرى ثقة واختبره حماد بن سلمة (لما يقول الناس : القصاصون لايحفظون) فوجد حفظه جيدا .

(٣) أبو ثمامة أو أبو حمزة : أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم النجارى الخزرجى الأنصارى صاحب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وخادمه روى عنه ٢٢٨٦ حديثا فى الكتب ولد بالمدينة (١٠ ق هـ/٦١٢ م) وتوفى بالبصرة (٩٣ هـ/٧١٢ م) وهو آخر من مات بالبصرة من الصحابة [انظر ترجمته فى طبقات ابن سعد ١٠/٧ ، وتهذيب ابن عساكر ١٣٩/٣ ، وصفة الصفوه ٢٩٨/١] الأعلام للزركلى ٢٤/٢ .

(٤) رواه أبو يعلى فى مسنده (٢/٧١) ، والعقيلى فى (الضعفاء) ص ٩٣ ، وابن عدى فى (الكامل) ٢/٦٦ ، وهو فى (صحيح الجامع) للألبانى برقم ١٧٨٤ (١/٤٦٧) وهذا هو الحديث الذى قال ابن عدى بسببه : بعض مايرويه مما لايتابع عليه ، وقال نحوه العقيلى . قال الألبانى : قد توبع عليه ، فالحديث صحيح ، انظر (سلسلة الأحاديث الصحيحة) له رقم ٤٧ ومابعده (ج ٦٨/١) .

(٥) سبقت الترجمة .

عمرو [1] عن النبى – صلى الله عليه وسلم – أنه قال : « **إنّ الله قدَّرَ مَقَادِيرَ الخَلاَئِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ** » [2] وفى صحيح البخارى [3] وغيره عن عمران بن حصين [4] عن النبى – صلى الله عليه وسلم – أنه قال : « **كَانَ اللهُ وَلَا شَيْءَ غَيْرُهُ ، عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ ، وَكَتَبَ فى الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ ، وَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ – وفى لفظ – ثُمَّ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ** » [5] .

وفى المسند عن العرباض بن سارية [6] عن النبى – صلىٰ الله عليه وسلم – أنه

---

(١) عبد الله بن عمرو بن العاص القرشى ، أسلم قبل أبيه ، وأذن له رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فى كتابة مايسمعه منه ، وخاض الحروب والغزوات فى سبيل الله ، وله ٧٠٠ حديث ، ولد فى مكة قبل الهجرة (٧ ق هـ/٦١٦ م) واختلفوا فى مكان وفاته (٦٥ هـ/٦٨٤ م) [انظر ترجمته فى : الإصابة ٤٨٣٨ ، وحلية الأولياء ٢٨٣/١ ، وصفة الصفوة ٢٧٠/١] الأعلام للزركلى ج ١١١/٤ .

(٢) رواه مسلم (٥١/٨) كتاب القدر ، باب كتب المقادير قبل الخلق . وطرف الحديث : « **كتب الله تعالى مقادير الخلائق** » الحديث ، وهو فى (مختصر صحيح مسلم) للمنذرى رقم ١٨٤١ ص ٤٨٦ . وهو فى (صحيح الجامع الصغير) للألبانى رقم ٤٤٧٤ ج ٨٢٦/٢ واخرجه أحمد (١٦٩/٢) ، والترمذى ، والبيهقى فى (الاسماء) ٢٦٩ ، وفى رواية له « **فرغ الله – عز وجل – من المقادير وامور الدنيا قبل أن يخلق السموات والأرض وعرشه على الماء بخمسين ألف سنة** » أنظر : (الطحاوية) بتخريج الألبانى رقم ٨ ص ١٣٤

(٣) بو عبدالله : محمد بن اسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخارى ، حبر الإسلام ، حافظ من أئمة أهل الحديث ، صاحب (الجامع الصحيح) من أحاديث رسول الله – صلى الله عليه وسلم – التى انتقاها البخارى من ٦٠٠ ألف حديث سمعها . ولد فى بخارى (١٩٤ هـ/٨١٠ م) وتوفى فى إحدى قرى سمرقند (٢٥٦ هـ/٨٧٠ م) [انظر ترجمته فى تذكرة الحفاظ ١١٢/٢ وتهذيب التهذيب ٤٧/٩ ، والوفيات ٤٤٥/١ طبقات الحنابلة ٢٧١/١ – ٢٧٩ ، وتاريخ بغداد ٣٦/٤/٢] الأعلام للزركلى ٣٤/٦ .

(٤) أبو نجيد الخزاعى : عمران بن حصين بن عبيد ، من علماء الصحابة ، أسلم عام خيبر ، وأرسله عمر إلى البصرة ليفقه أهلها ، وولاه زياد قضاءها ، له فى كتب الحديث ١٣٠ حديثا ، وتوفى بالبصرة سنة (٥٢ هـ/٦٧٢ م) [انظر ترجمته فى : تهذيب التهذيب ١٢٥/٨ ، وصفة الصفوة ٢٨٣/١ ، وطبقات ابن سعد ٤/٧ ، وتذكرة الحفاظ ٢٨/١] الأعلام للزركلى ج ٧٠/٥ .

(٥) رواه البخارى فى صحيحه فى (بدء الخلق) و(التوحيد) بروايتين : (**غيره**) و(**قبله**) ، واخرجه البيهقى فى (الأسماء والصفات) (٦ و ٢٧٠) ، ورواه أحمد (٤٣١/٤) بلفظ « **كان الله – تبارك وتعالى – قبل شىء** » وقد خرجه الألبانى فى (شرح العقيدة الطحاوية) رقم ٧٩ ص ١٣٣ .

(٦) العرباض بن سارية السلمى : أبو نجيح : صحابى مشهور من أهل الصفة ، لعله رابع من أسلم من الرجال ، وهو ممن نزل فيه قوله تعالى : ﴿**وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ**﴾ قال محمد بن عوف : كان قديم الإسلام جدا ، وقال خليفة : مات فى فتنة ابن الزبير ، وقال ابو مسهر وغير واحد : مات بعد ذلك سنة خمس وسبعين [انظر ترجمته فى : الإصابة ٥٤٩٣ ج ٢٣٤/٤ ، وتهذيب التهذيب ٣٤٠ ج ١٤٧/٧] .

قال : « إِنِّى عِنْدَ اللهِ مَكْتُوبٌ بِخَاتَمِ النَّبِيِّينَ ، وَإِنَّ آدَمَ لَمُنْجَدِلٌ فِى طِينَتِهِ ، وَسَأُنَبِّئُكُمْ بِأَوَّلِ ذَلِكَ : دَعْوَةُ أَبِى إِبْرَاهِيمَ ، وَبُشْرَى عِيسَى ، وَرُؤْيَا أُمِّى ، رَأَتْ حِينَ وَلَدَتْنِى أَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ لَهُ قُصُورُ الشَّامِ » [1] وفى حديث ميسرة الحر [2] قلت : يارسول الله ! مَتَى كُتِبْتَ نَبِياً ؟ – وفى لفظ – مَتَى كُنْتَ نَبِياً ؟ قال : « وَآدَمُ بَيْنَ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ » [3]

وفى الصحيحين عن عبدالله بن مسعود [4] – رضى الله عنه – قال : حدثنا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهو الصادق المصدوق : « أَنَّ خَلْقَ أَحَدِكُمْ يُجْمَعُ فِى بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْماً نُطْفَةً ، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ يُبْعَثُ إِلَيْهِ الْمَلَكُ فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ فَيَقَالُ : اكْتُبْ رِزْقَهُ ، وَعَمَلَهُ ، وَأَجَلَهُ ، وَشَقِىٌّ ، أَوْ سَعِيدٌ ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ – قال : فَوَالَّذِى نَفْسِى بِيدِه ، أو قال : فَوَالَّذِى لَا إِلَهَ غَيْرُهُ – إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَايَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُ النَّارَ » [5]

وفى الصحيحين عن على بن أبى طالب [6] – رضى الله عنه – قال : كنا مع

---

(١) رواه أحمد ، والطبرانى ، والحاكم ، وأبو نعيم فى (الحلية) ؛ والبيهقى فى (شعب الإيمان) : عن عرباض بن سارية ، وضعفه الألبانى فى (ضعيف الجامع الصغير) رقم ٢٠٩٠ ج ٢٢٣/١١ . ونوه إلى تضعيفه له فى (سلسلة الأحاديث الضعيفة) رقم ٢٩٨٥ .

(٢) هو ميسرة الفجر ، أو ميسرة الفخر كما فى (حلية الأولياء) ١٢٢/٧ ، وليس ميسرة الحر كما هو وارد هنا . وهو عبدالله بن أبى الجدعاء التيمى ، ويقال الكنانى ويقال : العبدى . صحابى ذكره البخارى والبغوى وابن السكن وغيرهم فى الصحابة وأخرجوا من طريق بديل بن ميسرة عن عبدالله بن شقيق عن ميسرة الفجر قال : قلت : يارسول الله متى كنت نبيا ؟ فذكره .. قال الحافظ فى (الإصابة) رقم ٨٢٧٧ ج ١٤٩/٦ : وهذا سند قوى لكن اختلف فيه على بديل بن ميسرة ، فرواه منصور بن سعيد عنه هكذا ، وخالفه حماد بن زيد فرواه عن بديل عن عبدالله بن شقيق لم يذكر ميسرة وقد قيل : إنه عبدالله بن أبى الجدعاء ، وميسرة لقب .

(٣) أخرجه أحمد فى مسنده (٥٩/٥) ، وابن أبى عاصم فى (السنة) رقم ٤١٠ ، وأبو نعيم فى (الحلية) (٥٣/٩) ، وأخرجه البخارى فى (التاريخ) (٣٧٤/١/٤) ، وابن سعد (٦٠/٧) ، وصححه الألبانى فى (سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها) رقم ١٨٥٦ ج ٤٧١/٤ وقد رواه الترمذى عن أبى هريرة [illegible] رقم ٣٨٧٠ . وهو فى (صحيح سنن ابن ماجه) للألبانى برقم ٢٨٥٦ ج ١٨٩/٣ .

(٤) سبقت الترجمة .

(٥) سبق تخريجه .

(٦) سبقت الترجمة .

رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ببقيع الغرقد فى جنازة ، فقال : « **مَا مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا قَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ وَمَقْعَدُهُ مِنَ الْجَنَّةِ** » فقالوا : يارسول الله ! **أَفَلَا نَتَّكِلُ عَلَى الْكِتَابِ وَنَدَعُ الْعَمَلَ ؟ قَالَ** : « **اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ ، أَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَسَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ فَسَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ ، ثُمَّ قَرَأَ قَوْلَهُ** -تعالى-: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ (١) .

وفى الصحيح أيضا أنه قيل له : يارسول الله أَعُلِمَ أَهْلُ الجنة من أهلِ النارِ ؟ فقال : « نعم » ! فقيل له : ففيمَ العملُ ؟ قال : « **اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ** » (٢) .

فبين النبى - صلى الله عليه وسلم - أن الله علم أهلَ الجنة من أهل النار ، وأنه كتب ذلك ، ونهاهم أن يتكلوا على هذا الكتاب ، ويدعوا العمل كما يفعله الملحدون . وقال : كل ميسر لما خلق له ، وإن أهل السعادة ميسرون لعمل أهل السعادة ، وأهل الشقاوة ميسرون لعمل أهل الشقاوة ، وهذا من أحسن مايكون من البيان .

وذلك أن الله - سبحانه وتعالى - يعلم الأمور على ماهى عليه ، وهو قد جعل للأشياء أسبابا تكون بها ، فيعلم أنها تكون بتلك الأسباب ، كما يعلم أن هذا يولد له بأن يطأ امرأة فيحبلها ، فلو قال هذا : إذا علم الله أنه يولد لى فلا حاجة إلى الوطء كان أحمق ؛ لأن الله علم أن سيكون بما يقدره من الوطء ، وكذلك إذا علم أن هذا ينبت له الزرع بما يسقيه من الماء ويبذره من الحب ، فلو قال : إذا علم أن سيكون فلا حاجة إلى البذر ، كان جاهلا ضالاً ؛ لأن الله علم أن سيكون بذلك ، وكذلك إذا علم الله أن هذا يشبع بالأكل ، وهذا يروى بالشرب ، وهذا يموت بالقتل ، فلابد من الأسباب التى علم الله أن هذه الأمور تكون بها .

---

(١) سبق تخريجه ، والآيات من سورة الليل ٥ - ١٠ .

(٢) سبق تخريجه .

وكذلك إذا علم أن هذا يكون سعيدا فى الآخرة ، وهذا شقيا فى الآخرة قلنا : ذلك لأنه يعمل بعمل الأشقياء ، فالله علم أنه يشقى بهذا العمل ، فلو قيل : هو شقى ، وإن لم يعمل ، كان باطلاً ، لأن الله لايدخل النار أحداً إلا بذنبه كما قال – تعالى – : ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (١). فأقسم أنه يملؤها من إبليس واتباعه ، ومن اتبع إبليس فقد عصى الله تعالى ، ولايعاقب الله العبد على ماعلم أنه يعمله حتى يعمله .

ولهذا لما سئل النبى – صلى الله عليه وسلم – عن أطفال المشركين قال : « **اللهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ** » (٢) يعنى أن الله يعلم مايعملون لو بلغوا وقد روى أنهم فى القيامة يبعث إليهم رسول فمن أطاعه دخل الجنة ، ومن عصاه دخل النار (٣) فيظهر ماعلمه فيهم من الطاعة والمعصية

وكذلك الجنة خلقها الله لأهل الإيمان به وطاعته ، فمن قدر أن يكون منهم يسره للإيمان والطاعة فمن قال : أنا أدخل الجنة سواء كنت مؤمنا أو كافراً إذا علم أنى من أهلها ، كان مفتريا على الله فى ذلك ؛ فإن الله إنما علم أنه يدخلها بالإيمان ، فإذا لم يكن معه إيمان، لم يكن هذا هو الذى علم الله أنه يدخل الجنة ، بل من لم يكن مؤمنا بل كا فرا فإن الله يعلم أنه من أهل النار ، لا من أهل الجنة

ولهذا امر الناس بالدعاء والاستعانة بالله وغير ذلك من الأسباب ، ومن قال : أنا لاأدعو ولا أسأل اتكالاً على القدر ، كان مخطئا أيضا ؛ لأن الله جعل الدعاء والسؤال من الأسباب التى ينال بها مغفرته وهداه ونصره ورزقه . وإذا قدر للعبد خيرا يناله بالدعاء لم يحصل بدون الدعاء ، وماقدره الله وعلمه من أحوال

---

(١) الآية : ٨٥من سورة ص .

(٢) . رواه الشيخان عن أبى هريرة ، وكذا أبو داود ، قال الألبانى فى تخريج أحاديث (مشكاة المصابيح) : أخرجه – يعنى أبو داود – من طريقين أحدهما صحيح انظر :(مشكاة المصابيح) رقم ٩٣ (٣٤/١) ورقم ١١١ (٣٩/١)

(٣) لم أعثر على هذه الرواية فى مصدر موثوق به من كتب الأحاديث ،وقال الحافظ ابن حجر فى (الفتح) فى (شرح باب ماقيل فى أولاد المشركين من كتاب التوحيد من صحيح البخارى) : « اختلف العلماء قديما وحديثا فى هذه المسألة على أقوال : » فعدد عشرة أقوال ليس فيها ماذكره ابن تيمية – رحمه الله – هنا ، فالله أعلم ، انظر : (فتح البارى بشرح صحيح البخارى) ج ٢٩٠/٣ ، ٢٩١ .

العباد وعواقبهم فإنما قدره الله بأسباب بِسَوْقِ المقادير إلى المواقيت ، فليس فى الدنيا والآخرة شيء إلا بسبب ، والله خالق الأسباب والمسبَّبات .

ولهذا قال بعضهم : الالتفات إلى الأسباب شرك فى التوحيد ، ومحو الأسباب أن تكون أسبابا نقص فى العقل ، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح فى الشرع . ومجرد الأسباب لايوجب حصول المسبَّب فإن المطر إذا نزل وبُذِرَ الحب لم يكن ذلك [كافيا] [(1)] فى حصول النبات بل لابد من ريح مربية بإذن الله ، ولابد من صرف الانتفاء عنه ، فلابد من تمام الشروط ، وزوال الموانع ، وكل ذلك بقضاء الله وقدره ، وكذلك الولد لايولد بمجرد إنزال الماء فى الفرج ، بل كم من أنزل ولم يولد له ، بل لابد من أن الله شاء خلقه فتحبل المرأة وتربيه فى الرحم ، وسائر مايتم به خلقه من الشروط وزوال الموانع .

وكذلك أمر الآخرة : ليس بمجرد العمل ينال الإنسان السعادة ، بل هى سبب ولهذا قال النبى – صلى الله عليه وسلم – : « **إِنَّهُ لَنْ يَدْخُلَ أَحَدُكُمْ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ** » قالوا : ولا أنتَ يارسولَ الله ؟! قال : « **وَلَا أَنَا ، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِى اللهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ** » [(2)] وقد قال : ﴿ **ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ [(3)] فهذه باء السبب ، أى : بسبب أعمالكم ، والذى نفاه النبى – صلى الله عليه وسلم – باء المقابلة كما يقال : اشتريت هذا بهذا ، أى : ليس العمل عوضا وثمنا كافيا فى دخول الجنة ، بل لابد من عفو الله وفضله ورحمته ، فبعفوه يمحو السيئات ، وبرحمته يأتى بالخيرات ، وبفضله يضاعف البركات .

وفى هذا الموضع ضل طائفتان من الناس .

(فريق) آمنوا بالقدر ، وظنوا أن ذلك كاف فى حصول المقصود ، فأعرضوا عن الأسباب الشرعية ، والأعمال الصالحة ، وهؤلاء يؤول بهم الأمر إلى أن يكفروا بكتب الله ، ورسله ، ودينه .

---

(١) مابين القوسين ، زيادة من المحقق لسلامة السياق .

(٢) رواه البخارى ومسلم من حديث ابى هريرة وجابر وعائشة بالفاظ متقاربة ، وهو فى (صحيح الجامع الصغير) للألبانى ، رقم ٥٢٢٢ ج ٩٢٧/٢ وفى (شرح العقيدة الطحاوية) رقم ٦١٣ ص ٤٣٧ .

(٣) جزء من الآية : ٣٢ من سورة النحل .

(وفريق) أخذوا يطلبون الجزاء من الله كما يطلبه الأجير من المستأجر ، متكلين على حولهم وقوتهم وعملهم ، وكما يطلبه المماليك ، وهؤلاء جهال ضُلَّالٌ ؛ فإن الله لم يأمر العباد بما أمرهم به حاجة إليه ، ولا نهاهم عما نهاهم عنه بخلاً له ، ولكن أمرهم بما فيه صلاحهم ، ونهاهم عما فيه فسادهم ، وهو - سبحانه - قال : (ياعبادى إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى)[1] فالملك إذا أمر مملوكيه بأمر أمرهم لحاجته إليهم ، وهم فعلوه بقوتهم التى لم يخلقها لهم ، فيطالبون بجزاء ذلك ، والله - تعالى - غنى عن العالمين ، فإن أحسنوا لأنفسهم ، وإن أساءوا فلها - لهم ماكسبوا وعليهم مااكتسبوا : ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾[2]

وفى الحديث الصحيح عن الله - تعالى - أنه قال : « يَاعِبَادِى : إِنِّى حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّماً فَلَا تَظَّالَمُوا ، يَاعِبَادِى : إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً وَلَا أُبَالِى ، فَاسْتَغْفِرُونِى أَغْفِرْ لَكُمْ ، يَاعِبَادِى كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِى أَهْدِكُمْ ، يَاعِبَادِى : كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا منْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِى أُطْعِمْكُمْ يَاعِبَادِى : إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّى فَتضُرُّونِى ، وَلنْ تَبْلُغُوا نَفْعِى فَتَنْفَعُونِى ، يَاعِبَادِى : لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ مِنْكُمْ مَازَادَ ذلِكَ فى مُلْكِي شَيْئاً ، يَاعِبَادِى : لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ مِنْكُمْ مَانَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِى شَيْئاً ، يَاعِبَادِى : لَوْ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ اجْتَمَعُوا فى صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِى فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ مَسْأَلَتَهُ مَانَقَصَ ذَلِكَ فى مُلْكِى شَيْئاً ، إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْبَحْرُ أَنْ يُغْمَسَ فِيهِ الْمِخْيطُ غَمْسَةً وَاحِدَةً ، يَاعِبَادِى : إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا ،

---

(١) جزء من الحديث القدسى الطويل الذى رواه مسلم فى صحيحه - كتاب البر - باب تحرير الظلم - (ج ١٠ ص ٨) ومابعدها ، وهو من حديث أبى ذر - رضى الله عنه - وطرفه : « **ياعبادى إنى حرمت الظلم على نفسي** » الحديث ، وسيأتى بطوله قريبا .

(٢) الآية : ٤٦ من سورة فصلت .

﴿ فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً فَلْيَحْمَدِ اللهَ ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ ﴾ (١) .

وهو – سبحانه – مع غناه عن العالمين ، خلقهم وأرسل إليهم رسولاً يبين لهم مايسعدهم ومايشقيهم ، ثم إنه هدى عباده المؤمنين لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه فمنَّ عليهم بالإيمان والعمل الصالح ، فخلقه بفضله ، وإرساله الرسول بفضله ، وهدايته لهم بفضله ، وجميع ماينالون به الخيرات من قواهم وغير قواهم هى بفضله ، فكذلك الثواب والجزاء هو بفضله ، وإن كان أوجب ذلك على نفسه كما حرم على نفسه الظلم ، ووعد بذلك كما قال : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ (٢) وقال – تعالى – : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٣) فهو واقع لا محالة واجب بحكم إيجابه ووعده ؛ لأن الخلق لايوجبون على الله شيئا . أو يحرمون عليه شيئا ، بل هم أعجز من ذلك وأقل من ذلك ، وكل نعمة منه فضل ، وكل نقمة منه عدل ، كما فى الحديث المتقدم : « **إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه** » .

وفى الحديث الصحيح : « **سَيِّدُ الاسْتِغْفَارِ أَنْ يَقُولَ الْعَبْدُ : اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّى لَا إِلَهَ إِلا أَنْتَ ، خَلَقْتَنِى وَأَنَا عَبْدُكَ وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ ، وَأَبُوءُ بِذَنْبِى فاغْفِرْ لِى : إِنَّهُ لايَغْفِرُ**

---

(١) سبق تخريجه فى الهامش قبل السابق ، وقد وقع فيه هنا تقديم وتأخير ، وسقط بعضه ، والنص كما ورد فى الصحيح هو : « **ياعبادى : إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا ، ياعبادى : كلكم ضال إلا من هديته فاستهدونى أهدكم ، ياعبادى : كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعمونى أطعمكم ، ياعبادى : كلكم عارٍ إلا من كسوته ، فاستكسونى أكسكم ، ياعبادى : إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا ، فاستغفرونى أغفر لكم ، ياعبادى : إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى ، ياعبادى : لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم مازاد ذلك فى ملكى شيئا ، ياعبادى : لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ، مانقص ذلك مما عندى ، إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر ، ياعبادى : إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خير فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه** » .

(٢) جزء من الآية : ٥٤ من سورة الأنعام .

(٣) جزء من الآية : ٤٧ من سورة الروم .

الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ مَنْ قَالَهَا إِذَا أَصْبَحَ مُوقِناً بِهَا فَمَاتَ مِنْ لَيْلَتِهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ » [1] .

فقوله : أبوء لك بنعمتك عليّ وأبوء بذنبى ، اعتراف بإنعام الرب وذنب العبد ، كما قال بعض السلف : إنى أصبح بين نعمة تنزل من الله عليّ ، و بين ذنب يصعد منى إلى الله ، فأريد أن أحدث للنعمة شكرا ، وللذنب استغفارا .

فمن أعرض عن الأمر والنهى والوعد والوعيد ناظرا إلى القدر فقد ضل ، ومن طلب القيام بالأمر والنهى معرضا عن القدر فقد ضل، بل المؤمن كما قال — تعالى — : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [2] فنعبده اتباعا للأمر ، ونستعينه إيمانا بالقدر .

وفى الحديث الصحيح عن النبى — صلى الله عليه وسلم — أنه قال : « **الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ ، احْرِصْ عَلَى مَايَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَاتَعْجِزْ وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ : لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ لَكَانَ كَذَا وكَذَا ، ولَكِنْ قُلْ : قَدَّرَ اللهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ : فَإِنَّ (لَوْ) تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ »** [3] .

فأمره النبى — صلى الله عليه وسلم — بشيئين : أن يحرص على ماينفعه ، وهو امتثال الأمر ، وهو العبادة ، وهو طاعة الله ورسوله ، وأنه ماشاء الله كان ومالم يشأ لم يكن .

فمن ظن أنه يطيع الله بلا معونته — كما يزعم القدرية والمجوسية — فقد جحد قدرة الله التامة ومشيئته النافذة ، وخلقه لكل شيء ، ومن ظن أنه إذا أُعِينَ على

---

(١) أخرجه البخارى فى (الدعوات) ، والنسائى فى (الاستعاذة) ، والترمذى (٢٢٩/٤) ، وأحمد (١٢٢/٤ و١٢٥) ، والطبرانى (٧١٧٢ — ٧١٧٤) و(٧١٨٧) و(٧١٨٩) ، وصححه ابن حبان (٢٣٥٣) ، وسنده صحيح ، رجاله ثقات ، قاله الألبانى فى (سلسلة الأحاديث الصحيحة وشىء من فقهها) رقم ١٧٤٧ ج ٣٢٨/٤ .

(٢) الآية : ٥ من سورة الفاتحة .

(٣) سبق تخريجه .

مايريد ، ويسر له ذلك كان محمودا سواء وافق الأمر الشرعى أو خالفه ، فقد جحد دين الله وكذب بكتبه ورسله ووعده ووعيده ، واستحق من غضبه وعقابه أعظم مايستحقه الأول .

فإن العبد قد يريد مايرضاه الله ويحبه ويأمر به ويقرب إليه ، وقد يريد مايبغضه الله ويكرهه ويسخطه ، وينهى عنه ويعذب صاحبه ، فكل من هذين قد يسر له ذلك كما قال النبى – صلى الله عليه وسلم –: « **كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ ، أَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَسَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ فَسَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ** »[(١)] وقد قال – تعالى – ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾[(٢)] وقال – تعالى – ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ﴾[(٣)].

بين – سبحانه – انه ليس كل من ابتلاه فى الدنيا يكون قد أهانه ، بل هو يبتلى عبده بالسراء والضراء ، فالمؤمن يكون صبارا شكورا ، فيكون هذا وهذا خيرا له ، كما فى الصحيح عن النبى – صلى الله عليه وسلم – أنه قال : « **لَايَقْضِى اللهُ لِلْمُؤْمِنِ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْراً لَهُ ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ ، فَكَانَ خَيْراً لَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ ، فَكَانَ خَيْراً لَهُ** »[(٤)] .

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) الآيات : ١٨ – ٢٠ من سورة الإسراء .

(٣) الآيتان : ١٥ و١٦ وأول الآية : ١٧ من سورة الفجر .

(٤) رواه أحمد (٤/٣٣٢، ٣٣٣)و(٦/١٥) عن صهيب ، وأخرجه مسلم عنه فى صحيحه (٧/٢٢٧) ، وأخرج نحوه الدارمى (٦/١٦) قال الألبانى فى (سلسلة الأحاديث الصحيحة) رقم ١٤٧ (١/٥٦) وله شاهد من حديث سعد بن أبى وقاص مرفوعا نحوه . أخرجه الطيالسى (٢١١) بإسناد صحيح ، وله شاهد آخر مختصر بلفظ : « **عجبا للمؤمن لا يقضى الله له شيئا إلا كان خيرا له** »

والمنافق هَلُوعٌ جَزُوعٌ ، كما قال – تعالى – : ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾ إلى قوله : ﴿ جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴾ (١) .

ولما كان العبدُ ميسرا لما لاينفعه بل يضره من معصية الله والبَطَرِ والطغيان ، وقد يقصد عبادة الله وطاعته والعمل الصالح فلا يتأتى له ذلك ، أمر فى كل صلاة بأن يقول : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (٢) وقد صح عن النبى – صلى الله عليه وسلم – أنه قال : « **يَقُولُ اللهُ – عَزَّ وَجَلَّ – : قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِى وَبَيْنَ عَبْدِى نِصْفَيْنِ ، نِصْفُهَا لِى ، وَنِصْفُهَا لِعَبْدِى ، وَلِعَبْدِى مَاسَأَلَ ، فَإِذَا قَالَ : ﴿ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ قَالَ : حَمِدَنِى عَبْدِى ، فَإِذَا قَالَ : ﴿ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ قَالَ : أَثْنَى عَلَىَّ عَبْدِى ، فَإِذَا قَالَ : ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ قَالَ : مَجَّدَنِى عَبْدِى ، فَإِذَا قَالَ : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ قَالَ : هَذِهِ الْآيَةُ بَيْنِى وَبَيْنَ عَبْدِى ، وَلِعَبْدِى مَاسَأَلَ ، فَإِذَا قَالَ : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ، صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ قَالَ : فَهَؤُلَاءِ لِعَبْدِى وَلِعَبْدِى مَا سَأَلَ** » (٣) .

وقال بعض السلف : أنزل الله – عز وجل – ، مائة كتاب ، وأربعة كتب جمع علمها فى الكتب الأربعة : التوارة ، والإنجيل ، والزبور ، والفرقان ، وجمع الأربعة فى القرآن ، وعِلْمُ القرآنِ فى المفصل (٤) وعلم المفصل فى الفاتحة ، وعلم الفاتحة فى قوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ .

= وألفاظ طرف الحديث منها : (عجبا للمؤمن) و(عجبا لأمر المؤمن) و(عجبت لأمر المؤمن) .

(١) الآيات : ١٩ – ٣٥ من سورة المعارج . (٢) الآية : ٥ من سورة الفاتحة .

(٣) رواه مالك فى باب (القراءة خلف الإمام فيما لايجهر فيه بالقراءة) ج ١ ص ٤٣ هامش مصابيح السنة عن أبى هريرة . وكذا أخرجه مسلم عنه فى (صحيحه) باب (وجوب قراءة الفاتحة فى كل ركعة) ج ٣ ص ١٢ من هامش العسقلانى .

(٤) المفصل : اصطلاح يطلق على سور القرآن الكريم ابتداء من سورة (ق) على الأصح حتى آخر القرآن تفاقا . قاله الألبانى فى (صفة صلاة النبى – صلى الله عليه وسلم –) ص ٥٥ فصل (جمعه – صلى الله عليه وسلم – بين النظائر وغيرها فى الركعة) .

فكل عمل يعمله العبد ، ولايكون طاعة لله وعبادة ، وعملاً صالحا فهو باطل ، فإن الدنيا ملعونة ملعون مافيها إلا ماكان لله وإن نال بذلك العمل رئاسة ومالاً ، فغاية الْمُتَرَئِّس أن يكون كفرعون ، وغاية الْمُتَمَوِّل أن يكون كقارون ، وقد ذكر الله فى سورة القصص من قصة فرعون وقارون مافيه عبرة لأولى الألباب ، وكل عمل لايعين الله العبد عليه فإنه لايكون ولاينفع ، فما لايكون به لايكون ، ومالا يكون له لاينفع ولايدوم ، فلذلك أمر العبد أن يقول : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ .

والعبد له فى المقدور (حالان) حال قبل القدر ، و(حال) بعده ، فعليه قبل المقدور أن يستعين بالله ويتوكل عليه ويدعوه ، فإذا قدر المقدور بغير فعله فعليه أن يصبر عليه أو يرضى به ، وإن كان بفعله وهو نعمة حمد الله على ذلك ، وإن كان ذنبا استغفر إليه من ذلك .

وله فى المأمور (حالان) : حال قبل الفعل وهو العزم على الامتثال والاستعانة بالله على ذلك . وحال بعد الفعل وهو الاستغفار من التقصير وشكر الله على ما أنعم به من الخير ، وقال -تعالى -: ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ ﴾[1] أمره أن يصبر على المصائب المقدرة ويستغفر من الذنب ، وإن كان استغفار كل عبد بحسبه ، فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين ، وقال -تعالى - : ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [2] وقال يوسف :﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾[3] فذكر الصبر على المصائب والتقوى بترك المصائب ، وقال النبى - صلى الله عليه وسلم - : « **احْرِصْ عَلَى مَايَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجِزْ ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ : لَوْ أَنِّى فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا . وَلَكِنْ قُلْ : قَدَّرَ اللهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ ؛ فَإِنَّ (لَوْ) تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ** » [4] .

(١) جزء من الآية : ٥٥ من سورة غافر .

(٢) جزء من الآية : ١٨٦ من سورة آل عمران .

(٣) جزء من الآية : ٩٠ من سورة يوسف .

(٤) سبق تخريجه : وطرفه « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفى كل خير » .

فأمره إذا أصابته المصائب أن ينظر إلى القدر ولايتحسر على الماضى - بل يعلم أن ماأصابه لم يكن ليخطئه . وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه ، فالنظر إلى القدر عند المصائب والاستغفار عند المصائب ، قال - تعالى - : ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ (١) وقال - تعالى - : ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ (٢)

قال علقمة (٣) وغيره : هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم والله - سبحانه وتعالى - أعلم .

***

(١) الآية : ٢٢ ، وجزء من الاية : ٢٣ من سورة الحديد .

(٢) جزء من الآية : ١١ من سورة التغابن.

(٣) هو أبو شبل : علقمة بن قيس بن عبدالله بن مالك النخعى الهمدانى : تابعى من أكابر فقهاء العراق ، ولد فى حياة النبى - صلى الله عليه وسلم - وروى الحديث عن الصحابة ، ورواه عنه كثيرون ، كان يشبه ابن مسعود فى هديه وسمته وفضله .. توفى بالكوفة سنة (٦٢ هـ/٦٨١ م) [انظر ترجمته فى تهذيب التهذيب ٢٧٦/٧ ، وحلية الأولياء ٩٨/٢ ، وتذكرة الحفاظ ٤٥/١ ، وتاريخ بغداد ٢٩٦/١٢] الأعلام للزركلى ٢٤٨/٤ .

* الفتوى الثانية (١٩٢ - ١٩٦/٨) :

وتطرق شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن تيمية - رحمه الله - إلى مثل المعنى السابق فى فتواه المسماة « بمراتب الإرادة » إذ جاء فيها قوله :

فصل

وأما (المسألة الرابعة) : فقوله : إذا جف القلم بما هو كائن فما معنى قوله : ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [1] وإن كان الدعاء أيضا مما هو كائن فما فائدة الأمر به ولابد من وقوعه ؟؟

فيقال : الدعاء فى اقتضائه الإجابة كسائر الأعمال الصالحة فى اقتضائها الإثابة ، وكسائر الأسباب فى اقتضائها المسبَّبات ، ومن قال : إن الدعاء علامة ودلالة محضة على حصول المطلوب المسئول ليس بسبب ، أو هو عبادة محضة لا أثر له فى حصول المطلوب وجودا ولا عدما ، بل مايحصل بالدعاء يحصل بدونه فهما قولان ضعيفان ؛ فإن الله علق الإجابة به تعليق المسَّبب بالسبب كقوله : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [1] وفى الصحيحين عن النبى - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « **مَامِنْ مُسْلِمٍ يَدْعُو اللهَ بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا إِثْمٌ وَلَا قَطِيعَةُ رَحِمٍ إِلَّا أَعْطَاهُ بِهَا إِحْدَى خِصَالٍ ثَلَاثٍ : إِمَّا أَنْ يُعَجِّلَ لَهُ دَعْوَتَهُ ، وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَ لَهُ مِنَ الْخَيْرِ مِثْلَهَا ، وَإِمَّا أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُ مِنَ الشَّرِّ**

(١) جزء من الآية : ٦٠ من سورة غافر

مِثْلَهَا » قالوا : يارسولَ الله إذاً نُكْثِرُ ، قَالَ : « **الله أَكْثَرُ** » [1] فعلق العطايا بالدعاء تعليق الوعد والجزاء بالعمل المأمور به ، وقال عمر بن الخطاب [2] : إنى لا أحمل هَمَّ الإجابة ، وإنما أحمل هم الدعاء ، فإذا ألهمت الدعاء فإن الإجابة معه وأمثال ذلك كثير .

وأيضا فالواقع المشهود يدل على ذلك ويبينه كما يدل على ذلك مثله فى سائر الأسباب ، وقد أخبر – سبحانه – من ذلك ما أخبر به فى مثل قوله : ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴾ [3] وقوله – تعالى – : ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [4] وقوله : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ﴾ [5] وقوله – تعالى – عن زكريا : ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ﴾ [6] . وقال – تعالى – : ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [7] وقال – تعالى – : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾

---

(١) رواه أحمد فى مسنده ج ١٨/٣ عن أبى سعيد – رضى الله عنه – وله شاهد آخر فيه ج ٤٤٨/٢ ، ورواه ابن أبى شيبة ، وأبو يعلى فى مسنده ، والحاكم فى (المستدرك) ، والبيهقى فى (شعب الإيمان) ، وهو فى (كنز العمال) برقم ٣١٧١ ج ٧٠/٢ .

(٢) سبقت الترجمة

(٣) الآية : ٧٥ من سورة الصافات

(٤) الآيتان : ٨٧ ، ٨٨ من سورة الأنبياء .

(٥) جزء من الآية : ٦٢ من سورة النمل .

(٦) جزء من الآيتين : ٨٩ ، ٩٠ من سورة الأنبياء .

(٧) الآية : ٦٥ من سورة العنكبوت .

أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴾ (١) .

فأخبر أنه إن شاء أَوْبَقَهُنَّ ، فاجتمع أخذهم بذنوبهم وعفوه عن كثير منها مع علم المجادلين فى آياته أنه مالهم من محيص ، لأنه فى مثل هذا الحال يَعْلَمُ الْمُورِدَ للشبهات فى الدلائل الدالة على ربوبية الرب وقدرته ومشيئته ورحمته أنه لامخلص له مما وقع فيه كقوله فى الآية الأخرى : ﴿ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴾ (٢) .

فإن المعارف التى تحصل فى النفس بالأسباب الاضطرارية أثبت وأرسخ من المصارف التى ينتجها مجرد النظر والقياس – الذى ينزاح عن النفوس فى مثل هذه الحال – هل الرب موجب بذاته ، فلا يكون هو المحدث للحوادث ابتداء ولايمكنه أن يحدث شيئا ولايغير العالم حتى يدعى ويسأل ؟ وهل هو عالم بالتفصيل والإجمال ، وقادر على تصريف الأحوال ، حتى يسأل التحويل من حال إلى حال ؟ أو ليس كذلك كما يزعمه من يزعمه من المتفلسفة وغيرهم من الضُّلَّال ، فيجتمع من العقوبة والعفو من ذى الجلال ، علم أهل المراء والجدال أنه لامحيص لهم عمنا أوقع بمن جادلوا فى آياته وهو شديد المحال . وقد تكلمنا على هذا وأشباهه ومايتعلق به من المقالات والديانات فى غير هذا الموضع .

والمقصود هنا أن يُعْلَمَ أن الدعاء والسؤال هو سبب لنيل المطلوب المسئول ، ليس وجوده كعدمه فى ذلك ، ولاهو علامة محضة ، كما دل عليه الكتاب والسنة ، وإن كان قد نازع فى ذلك طوائف من أهل القبلة و غيرهم مع أن ذلك يُقِرُّ به جماهير بنى آدم من المسلمين واليهود والنصارى والصابئين والمجوس والمشركين ، لكن طوائف من المشركين والصابئين من المتفلسفة المشائين أتباع

(١) الآيات : ٣٢ – ٣٥ من سورة الشورى .
(٢) جزء من الآية ١٣ من سورة الرعد .

أرسطو [1] ومن تبعه من متفلسفة أهل الملل [2] كالفارابى [3] ، وابن سينا [4] ، ومن سلك سبيلهما – ممن خلط ذلك بالكلام والتصوف والفقه ، ونحو هؤلاء – يزعمون أن تأثير الدعاء فى نيل المطلوب كما يزعمونه فى تأثير سائر الممكنات المخلوقات من القوى الفلكية والطبيعية والقوى النفسانية والعقلية ، فيجعلون مايترتب على الدعاء هو من تأثير النفوس البشرية من غير أن يثبتوا للخالق – سبحانه – بذلك علما مفصلاً ، أو قدرة على تغيير العالم ، أو أن يثبتوا أنه لو شاء أن يفعل غير مافعل لأمكنه ذلك ، فليس هو عندهم قادرا على أن يجمع عظام الإنسان ويسوى بنانه ، وهو – سبحانه – هو الخالق لها ولقواها فلا حول ولا قوة إلا بالله !!

وأما قوله : (وإن كان الدعاء مما هو كائن ، فما فائدة الأمر به ولابد من وقوعه ؟) .

---

(١) أرسطو ، أو أرسطوطاليس .. فيلسوف يو نانى كبير يلقبونه (بالمعلم الأول) . وهو أستاذ الإسكندر الأكبر ، تأثر به بعض مفكرى العرب والمسلمين منذ نقلت مؤلفاته فى المنطق والطبيعيات إلى اللغة العربية ، وقد عاش أرسطوطاليس مابين سنتى ٣٨٤ ق . م و٣٢٢ ق . م .

(٢) لعل أصلها أن يكون (الملة) : يعنى ملة الإسلام .

(٣) هو أبو نصر الفارابى : محمد بن محمد بن طرخان بن أوزلغ ، تركى الأصل، وهو من أشهر الفلاسفة المسلمين ، وعرف بالمعلم الثانى ؛ لشرحه مؤلفات أرسطو ، ولد فى فاراب (على نهر جيحون) سنة (٢٦٠ هـ/٨٧٤ م) وعاش فى بغداد ، وتوفى بدمشق سنة (٣٣٩ هـ /٨٧٤ م) ، كان يجيد اليونانية وكثيرا من اللغات الشرقية ، ميالاً للعزلة والزهد ، وله نحو مائة كتاب [انظر ترجمته فى : وفيات الأعيان ٧٦/٢ ، والبداية والنهاية ٢٢٤/١١ ، وطبقات الأطباء ١٣٤/٢ – ١٤٠ ، وتاريخ حكماء الإسلام ٣٠] الأعلام للزركلى ج ٢٠/٧ .

(٤) وهو أبو على : الحسين بن عبدالله بن سينا ، الملقب بالفيلسوف الرئيس ، ولد ونشأ وتعلم فى بخارى ، واشتغل بالطب والمنطق والطبيعيات والإلهيات ، وصنف أكثر كتبه فى هذه المعارف وهو بأصفهان التى قصدها هاربا من همذان لما ثار عليه عسكرها وهو أميرها ، وقد نسبه ابن تيمية وابن القيم من بعده إلى القرامطة الباطنيين وإلى الإسماعيليين والفاطميين ، وذلك من أقواله وأشهر كتبه (القانون) فى الطب ، و(الشفاء) فى الحكمة وغيرهما الكثير ، ولد سنة (٣٧٠ هـ/٩٨٠ م) ومات فى همذان سنة (٤٢٨ هـ/١٠٣٧ م) [انظر ترجمته فى : وفيات الأعيان ١٥٢/١ وتاريخ حكماء الإسلام ٢٧ ، ٧٢ ، ودائرة المعارف الإسلامية ٢٠٣/١] الأعلام للزركلى ٢٤٢/٢ .

فيقال : الدعاء المأمور به لايجب كونا ، بل وإذا أمر الله العباد بالدعاء فمنهم من يطيعه فيستجاب له دعاؤه ، وينال طلبته ، ويدل ذلك على أن المعلوم المقدور هو الدعاء والإجابة ، ومنهم من يعصيه فلا يدعو فلا يحصل ماعلق بالدعاء ، فيدل ذلك على أنه ليس فى المعلوم المقدور الدعاء ولا الإجابة ، فالدعاء الكائن هو الذى تقدم العلم بأنه كائن [والدعاء الذى لايكون هو الذى تقدم العلم بأنه] (١) لايكون .

فإن قيل : فما فائدة الأمر فيما علم أنه يكون من الدعاء ؟ قيل : الأمر هو سبب أيضا فى امتثال المأمور به كسائر الأسباب ، فالدعاء سبب يدفع البلاء ، فإذا كان أقوى منه دفعه ، وإن كان سبب البلاء أقوى لم يدفعه ، لكن يخففه ويضعفه ، ولهذا أمر عند الكسوف والآيات بالصلاة والدعاء والاستغفار والصدقة والعتق والله أعلم .

***

(١) مابين القوسين من إضافة المحقق لاستكمال السياق وفق المعنى المراد هنا .

* الفتوى الثالثة (١٣٠ - ١/١٣٨) .

وقال شيخ الإسلام - رحمه الله - كلاما جيدا فى كون الدعاء من الأسباب ضمن فتواه المسماة (بالرسالة الواسطة بين الخلق والحق) حيث قال :

ولاريب أن دعاء الخلق بعضهم لبعض نافع ، والله قد أمر بذلك ، لكن الداعى الشافع : ليس له أن يدعو ويشفع إلا بإذن الله له فى ذلك ، فلايشفع شفاعة نهى عنها ، كالشفاعة للمشركين والدعاء لهم بالمغفرة قال - تعالى - : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ۝١١٣ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ (١) وقال - تعالى - فى حق المنافقين : ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾ (٢) .

وقد ثبت فى الصحيح : أن الله نهى نبيه عن الاستغفار للمشركين والمنافقين ، وأخبر أنه لايغفر لهم . كما فى قوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ (٣) وقوله : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ (٤). وقد قال - تعالى - : ﴿ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾(٥) فى الدعاء -ومن الاعتداء فى الدعاء :أن يسال العبد مالم يكن الرب ليفعله ، مثل : أن يسأله منازل الأنبياء وليس منهم ، أو المغفرة للمشركين ، ونحو ذلك أو يسأله مافيه معصية الله كإعانته على الكفر والفسوق والعصيان .

فالشفيع الذى أذن الله له فى الشفاعة : شفاعته فى الدعاء الذى ليس فيه

---

(١) الآية ١١٣ ، وجزء من الآية : ١١٤ من سورة التوبة

(٢) جزء من الآية : ٦ من سورة المنافقون

(٣) جزء من الآية : ١١٦ من سورة النساء .

(٤) الآية : ٨٤ من سورة التوبة .

(٥) الآية : ٥٥ من سورة الأعراف .

عدوان ، ولو سأل أحدهم دعاء لا يصلح لة لايقر عليه ، فإنهم معصومون أن يقروا على ذلك .

كما قال نوح : ﴿إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾[1] قال تعالى : ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[2]

وكل داع شافع دعا الله – سبحانه وتعالى – وشفع : فلا يكون دعاؤه وشفاعته إلا بقضاء الله وقدره ومشيئته ، وهو الذى يجيب الدعاء ويقبل الشفاعة فهو الذى خلق السبب والمسبَّب ، والدعاء من جملة الأسباب التى قدرها الله – سبحانه وتعالى – .

وإذا كان كذلك : فالالتفات إلى الأسباب شرك فى التوحيد ، ومحو الأسباب أن تكون أسبابا نقص فى العقل ، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح فى الشرع ، بل العبد يجب أن يكون توكله ودعاؤه وسؤاله ورغبته إلى الله – سبحانه وتعالى – والله يقدر له من الأسباب – من دعاء الخلق وغيرهم – ماشاء .

والدعاء مشروع أن يدعو الأعلى للأدنى ، والأدنى للأعلى : فطلب الشفاعة والدعاء من الأنبياء كما كان المسلمون يستشفعون بالنبى – صلى الله عليه وسلم – فى الاستسقاء ، ويطلبون منه الدعاء ، بل وكذلك بعده استسقى عمر[3] والمسلمون بالعباس[4] عمه ، والناس يطلبون الشفاعة يوم القيامة من الأنبياء ،

---

(١) جزء من الآية : ٤٥ من سورة هود .

(٢) جزء من الآية : ٤٦ والآية : ٤٧ بتمامها من سورة هود . (٣) سبقت الترجمة

(٤) هو أبو الفضل : العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، عم النبى – صلى الله عليه وسلم – الكريم الجواد المحسن – أعتق سبعين عبدا من الرق اشتراهم ، أسلم قبل الهجرة وكتم إسلامه ، وهاجر إلى المدينة ، وشهد فتح مكة ، ولد بمكة سنة (٥١ ق . هـ/٥٧٣ م) وتوفى بالمدينة سنة (٣٢ هـ/٦٥٣ م) [انظر فى ترجمته ، أسد الغابة ، والجمع بين رجال الصحيحين ، والإصابة ، وصفة الصفوة ٢٠٣/١] الأعلام للزركلى ج ٢٦٢/٣ .

ومحمد – صلى الله عليه وسلم ، وهو سيد الشفعاء ، وله شفاعات يختص بها – ومع هذا – فقد ثبت فى الصحيحين عن النبى – صلى الله عليه وسلم – أنه قال : « إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَايَقُولُ ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ ، فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ مَرَّةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ عَشْرًا ثُمَّ سَلُوا اللهَ لِى الْوَسِيلَةَ فَإِنَّهَا دَرَجَةٌ فِى الْجَنَّةِ لَاتَنْبَغِى إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللهِ ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ ذَلِكَ الْعَبْدَ ، فَمَنْ سَأَلَ اللهَ لِيَ الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ عَلَيْهِ شَفَاعَتِى يَوْمَ الْقِيَامَةِ » [1] وقد قال لعمر لما أراد أن يعتمر وودعه : « يَاأَخِى لَاتَنْسَنِى مِنْ دُعَائِكَ » [2].

فالنبى – صلى الله عليه وسلم – قد طلب من أمته أن يدعوا له ، ولكن ليس ذلك من باب سؤالهم ، بل أمره بذلك لهم كأمره لهم بسائر الطاعات التى يثابون عليها ، مع أنه – صلى الله عليه وسلم – له مثل أجورهم فى كل مايعملونه ، فإنه قد صح عنه أنه قال : « مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الأَجرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنِ اتَّبَعَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئاً ، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْوِزْرِ مِثْلُ أَوْزَارِ مَنِ اتَّبَعَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْئًا » [3] . وَهُوَ دَاعِى الأُمَّةِ إلى كل هدى ، فله مثل أجورهم فى كل مااتبعوه فيه .

وكذلك إذا صلّوا فإن الله يصلى على أحدهم عشرا ، وله مثل أجورهم مع ما يستجد من دعائهم له ، فذلك الدعاء قد أعطاهم الله أجرهم عليه ، وصار ماحصل له به من النفع نعمة من الله عليه ، وقد ثبت عنه فى الصحيح أنه قال : « مَامِنْ رَجُلٍ يَدْعُو لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ بِدَعْوَةٍ إِلَّا وَكَّلَ اللهُ بِهِ مَلَكاً ،

---

(١) رواه مسلم (٤/٢) ، وأبو داود (٥٢٣) ، والنسائى (١١٠/١) ، والترمذى فى (الدعوات ٢٨٢/٢) وأحمد (١٦٨/٢) ، والبيهقى (٤٠٩/١ ، ٤١٠) كلهم عن عبدالله بن عمرو بن العاص ، وقال الترمذى : حديث حسن صحيح ، وهو فى (إرواء الغليل) للألبانى برقم ٢٤٢ ج ٢٥٩/١ ، وفى (صحيح الجامع الصغير) له برقم ٦١٣ ج ١٦٧/١

(٢) رواه أبو داود ، والترمذى ، وقال الألبانى : وإسناده ضعيف ، ولاتغتر بإيراد بعض الكبار إياه وسكوته عليه فانظر تخريج أحاديث (مشكاة المصابيح) له رقم ٢٢٤٨ ج ٦٩٥/٢ .

(٣) سبق تخريجه .

كُلَّمَا دَعَا لِأَخِيهِ بِدَعْوَةٍ قَالَ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِهِ : آمِينَ وَلَكَ مِثْلُ ذَلِكَ » [1] وفى حديث آخر : « أَسْرَعُ الدُّعَاءِ دَعْوَةُ غَائِبٍ لِغَائِبٍ » [2].

فالدعاء للغير ينتفع به الداعى والمدعو له ، وإن كان الداعى دون المدعو له ، فدعاء المؤمن لأخيه ينتفع به الداعى والمدعو له ، فمن قال لغيره : ادع لى وقصد انتفاعهما جميعا بذلك كان : هو وأخوه متعاونين على البر والتقوى ، فهو نبه المسئول وأشار عليه بما ينفعهما ، والمسئول فعل ماينفعهما بمنزلة من يأمر غيره ببر وتقوى فيثاب المأمور على فعله ، والآمر أيضا يثاب مثل ثوابه ، لكونه دعا إليه لاسيما ومن الأدعية مايؤمر بها العبد ، كما قال - تعالى : ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [3] فأمره بالاستغفار ثم قال - تعالى - : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [4]

فذكر - سبحانه - استغفارهم ، واستغفار الرسول لهم إذ ذاك مما أمر به الرسول ، حيث أمره أن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات ، ولم يأمر الله مخلوقا أن يسأل مخلوقا شيئا لم يأمر الله المخلوق به ، بل ما أمر الله العبد أمر إيجاب ، أو استحباب ، ففعله هو عبادة لله وطاعة وقربة إلى الله ، وصلاح لفاعله وحسنة فيه ، وإذا فعل ذلك كان أعظم لإحسان الله إليه ، وإنعامه عليه ، بل أجل نعمة أنعم الله بها على عباده أن هداهم للإيمان .

---

(١) رواه مسلم (٨/٨٦) ، وأبو داود (١٥٣٤) عن أم الدرداء عن زوجها مرفوعا ، وأخرجه أحمد (٦/٤٥٢) ، وابن ماجه (٢٨٩٥) ، وروى نحوه ابن عدى فى (الكامل) (ق ١/١٨٠) عن أبى هريرة ، وقد صححه الألبانى فى (صحيح الجامع الصغير) رقم ٥٣٥ ج ١/١٥٤ ، وفى (سلسلة الأحاديث الصحيحة) رقم ١٣٣٩ ج ٣/٣٢٦ ، وفى (صحيح سنن ابن ماجه) رقم ٢٣٤٠ ج ٢/١٥٠ .

(٢) رواه الترمذى ، وأبو داود عن عبدالله بن عمرو ، وضعفه الألبانى فلم يذكره فى (صحيح سنن الترمذى) رغم إيراده لاسم الباب : باب دعوة الأخ لأخيه بظهر الغيب (٥٠) إذ لم يصح عنده شىء فى هذا الباب ج ٢/١٩٠ ، ويلاحظ سكوته عنه فى تخريج أحاديث (مشكاة المصابيح) رقم ٢٢٤٧ ج ٢/٦٩٥

(٣) جزء من الآية : ١٩ من سورة محمد .

(٤) جزء من الآية : ٦٤ من سورة النساء .

والإيمان قول وعمل ، يزيد بالطاعة والحسنات ، وكلما ازداد العبد عملا للخير ازداد إيمانه . هذا هو الإنعام الحقيقى المذكور فى قوله : ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ (١) وفى قوله : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم ﴾ (٢) بل نعم الدنيا بدون الدين : هل هى من نعمه أم لا ؟ فيه قولان مشهوران للعلماء من أصحابنا وغيرهم .

والتحقيق : أنها نعمة من وجه وإن لم تكن نعمة تامة من وجه ، وأما الإنعام بالدين الذى ينبغى طلبه فهو ما أمر الله به من واجب ومستحب فهو الخير الذى ينبغى طلبه باتفاق المسلمين ، وهو النعمة الحقيقية عند أهل السنة ، إذ عندهم أن الله هو الذى أنعم بفعل الخير ،والقدرية عندهم إنما أنعم بالقدرة عليه ، الصالحة للضدين فقط .

والمقصود هنا : أن الله لم يأمر مخلوقا أن يسأل مخلوقا إلا ماكان مصلحة لذلك المخلوق ، إما واجب أو مستحب . فإنه – سبحانه – لا يطلب من العبد إلا ذلك ، فكيف يأمر غيره أن يطلب منه غير ذلك ؟ بل قد حرم على العبد أن يسأل العبد ماله إلا عند الضرورة .

وإن كان قصده مصلحة المأمور أو مصلحته ومصلحة المأمور ، فهذا يثاب على ذلك ، وإن كان قصده حصول مطلوبه من غير قصد منه لانتفاع المأمور ، فهذا من نفسه أتى ، و مثل هذا السؤال لايأمر الله به قط ، بل قد نهى عنه ، إذ هذا سؤال محض للمخلوق من غير قصده لنفعه ولالمصلحته ، والله يأمرنا أن نعبده ونرغب إليه ، ويأمرنا أن نحسن إلى عباده .. وهذا لم يقصد لاهذا ولاهذا ، فلم يقصد الرغبة إلى الله ودعائه ، وهو الصلاة . ولاقصد الإحسان إلى المخلوق الذى هو الزكاة ، وإن كان العبد قد لايأثم بمثل هذا السؤال ، لكن فرق مابين مايؤمر به العبد ومايؤذن له فيه ، ألا ترى أنه قال فى حديث السبعين ألفا الذين يدخلون

(١) جزء من الآية : ٧ من سورة الفاتحة .
(٢) جزء من الآية : ٦٩ من سورة النساء .

الجنة بغير حساب : « إِنَّهُمْ لَا يَسْتَرْقُونَ » وإن كان الاسترقاء جائزا ، وهذا قد بسطناه فى غير هذا الموضع .

والمقصود هنا : أن من أثبت وسائط بين الله وبين خلقه ، كالوسائط التى تكون بين الملوك والرعية ، فهو مشرك ، بل هذا دين المشركين عُبَّادِ الأوثان كانوا يقولون : إنها تماثيل الأنبياء والصالحين ، وإنها وسائل يتقربون بها إلى الله ، وهو من الشرك الذى أنكره الله على النصارى حيث قال : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (1) وقال – تعالى – : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ (2) أى : فليستجيبوا لى إذا دعوتهم بالأمر والنهى ، وليؤمنوا بى أن أجيب دعاءهم لى بالمسألة والتضرع .

وقال – تعالى – : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴾ (3) وقال – تعالى – : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ۖ ﴾ (4) وقال – تعالى – : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ ﴾ (5) وقال – تعالى – : ﴿ يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ (6) .

وقد بين الله هذا التوحيد فى كتابه ، وحسم مواد الإشراك به حتى لا يخاف غير

---

(1) الآية : ٣٠ من سورة التوبة .
(2) الآية : ١٨٦ من سورة البقرة .
(3) الآيتان : ٧ ، ٨ من سورة الشرح .
(4) جزء من الآية : ٦٧ من سورة الإسراء .
(5) جزء من الآية : ٦٢ من سورة النمل .
(6) الآية : ٢٩ من سورة الرحمن .

الله ، ولايرجو سواه ، ولايتوكل إلا عليه . وقال – تعالى – : ﴿ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ (١) ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ ﴾ (٢) أي : يخوفكم أولياءه ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (٣) وقال – تعالى – : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ﴾ (٤) وقال – تعالى – : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ ﴾ (٥) وقال – تعالى – : ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ (٦) .

فبين أن الطاعة لله ورسوله ، وأما الخشية فلله وحده .

وقال – تعالى – : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ ﴾ (٧) ونظيره قوله - تعالى -: ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ (٨) .

وقد كان النبى – صلى الله عليه وسلم – يحقق هذا التوحيد لأمته ، ويحسم

---

(١) جزء من الآية : ٤٤ من سورة المائدة .
(٢) جزء من الآية : ١٧٥ من سورة آل عمران .
(٣) باقى الآية : ١٧٥ من سورة آل عمران .
(٤) جزء من الآية : ٧٧ من سورة النساء .
(٥) جزء من الآية : ١٨ من سورة التوبة .
(٦) الآية : ٥٢ من سورة النور .
(٧) جزء من الآية : ٥٩ من سورة التوبة .
(٨) الآية : ١٧٣ من سورة آل عمران .

عنهم مواد الشرك ، إذ هذا تحقيق قولنا : لا إلـه إلا الله ، فإن الإله هو الذى تألهه القلوب ، لكمال المحبة والتعظيم ، والإجلال والإكرام ، والرجاء والخوف ، حتى قال لهم : « لَا تَقُولُوا مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ ، وَلَكِنْ قُولُوا : مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ شَاءَ مُحَمَّدٌ » [1] وقال له رجل : ما شاء الله وشئت . فقال : « أَجَعَلْتَنِي لِلهِ نِدًّا بَلْ مَاشَاءَ اللهُ وَحْدَهُ » [2] وقال : « من كان حالفا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ أَوْ لِيَصْمُتْ » [3] وقال : « مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ اشْرَكَ » [4] وقال لابن عباس [5] : « إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ ، جَفَّ الْقَلَمُ بِمَا أَنْتَ لَاقٍ ، فَلَوْ جَهِدَتِ الْخَلِيقَةُ عَلَى أَنْ تَنْفَعَكَ لَمْ تَنْفَعْكَ إِلَّا بِشَيْءٍ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ ، وَلَوْ جَهِدَتْ أَنْ تَضُرَّكَ لَمْ تَضُرَّكَ إِلَّا بِشَيْءٍ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ » [6]

---

(١) رواه ابن ماجه (٢١١٨) ، وأحمد (٣٩٣/٥) ، وروى نحوه ابو داود (٤٩٨٠) والطحاوى فى (مشكل الآثار) (٩٠/١) ، البيهقى (٢١٦/٣) ، وأحمد (٣٨٤/٥ و٣٩٤ و٢٩٨) ، كلهم عن حذيفة ، ونصه : (لاتقولوا : ماشاء الله وشاء فلان) وقد صححه الالبانى فى (سلسلة الاحاديث الصحيحة) رقم ١٣٧ ج ٤٥/١ .

(٢) رواه البخارى فى (الأدب المفرد) (٧٨٧) ، وابن ماجه (٢١١٧) ، والطحاوى فى (المشكل ٩٠/١) ، والبيهقى (٢١٧/٣) ، وأحمد (٢١٤/١ و٢٢٤ و٢٨٣ و٣٤٧) ، والطبرانى فى الكبير (١/١٨٦/٣) ، وأبو نعيم فى (الحلية) (٩٩/٤) : كلهم عن ابن عباس — رضى الله عنهما — ، وحسنه الألبانى فى (سلسلة الأحاديث الصحيحة) رقم ١٣٩ ج ٤٧/١ .

(٣) حديث صحيح ، أخرجه البخارى (١٦١/٢ و١٣٧/٤ و٢٦٢ — ٢٦٣) ، ومسلم (٨١/٥) ، ومالك (٤٨٠/٢/١٤) ، وأبو داود (٣٢٤٩) ، والترمذى (٢٨٩/١) وقال : حديث حسن صحيح ، ورواه أحمد (١١/٢ و١٧ و١٤٢) ، والبيهقى (٢٨/١٠) ، وابن أبى شيبة (١٧٩/٤) : كل هؤلاء وأولئك عن عبدالله بن عمر — رضى الله عنهما — ، وهو فى (إرواء الغليل) للألبانى برقم ٢٥٦٠ ج ١٨٧/٨ ، وطرف الحديث : **« إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم فمن كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت »**

(٤) أخرجه الترمذى (٢٩٠/١) وحسنه ، وأبو داود (٣٢٥١) ، وابن حبان (١١٧٧) ، والحاكم (٢٩٧/٤) ، والبيهقى (٢٩/١٠) ، وأحمد (٣٤/٢ و٦٧ و٨٦ و١٢٥) ، والطيالسى (١٨٩٦) : كلهم من حديث ابن عمر مرفوعا ، وقد صححه الألبانى فى (إرواء الغليل) رقم ٢٥٦١ ج ١٨٩/٨

(٥) سبقت الترجمة .

(٦) رواه أحمد (٢٩٣/١ و٣٠٧) ، والترمذى (٥٧/٢) ، والحاكم (٥٤١/٣) ، كلهم عن ابن عباس ، ولفظ الحديث : **« ياغلام ! احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك ، وإذا سألت فاسأل الله. وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف »** قال الألبانى فى تخريج أحاديث (مشكاة المصابيح) : فى الترمذى (٥٧/٢) : مما (أى بدل قبل) : انظر (مشكاة المصابيح) حديث رقم ٥٣٠٢ ج ١٤٥٩/٣ .

وقال أيضا : « لَا تُطْرُونِى كَمَا أُطْرَتِ النَّصَارَى عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ ، وَإِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ ، فَقُولُوا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ » (١) وقال : « اللَّهُمَّ لَاتَجْعَلْ قَبْرِى وَثَناً يُعْبَدُ » (٢) وقال : « لَاتَتَّخِذُوا قَبْرِى عِيداً ، وَصَلُّوا عَلَىَّ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِى حَيْثُ ماكُنْتُمْ » (٣) وقال فى مرضه : « لَعَنَ اللهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى ؛ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ » (٤) يحذر ماصنعوا . قالت عائشة (٥) : ولولا ذلك لأبرز قبره ، ولكن كره أن يتخذ مسجدا . وهذا باب واسع .

ومع علم المؤمن أن الله رب كل شيء ومليكه ، فإنه لاينكر ماخلقه الله من الأسباب ، كما جعل المطر سببا لإنبات النبات قال الله – تعالى –: ﴿ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ﴾ (٦) وكما جعل الشمس والقمر سببا لما يخلقه بهما ، وكما جعل الشفاعة والدعاء سببا لما يقضيه بذلك ، مثل صلاة المسلمين على جنازة الميت ، فإن ذلك من الأسباب التى يرحمه الله بها ، ويثيب عليها المصلين عليه ؛ لكن ينبغى أن يعرف فى الأسباب ثلاثة أمور :

---

(١) رواه البخارى عن عمر ، وهو فى (صحيح الجامع الصغير) للألبانى برقم ٧٣٦٣ ج ١٢٢٩/٢ .

(٢) أخرجه أحمد (٢٤٦/٢) ، وابن سعد فى (الطبقات) (ح ٢ ق ٢ ص ٣٦) : من حديث أبى هريرة .. وصحح الألبانى إسناده، فانظر تخريجه للحديث فى (فقه السيرة) للغزالى ، ص ٥٧ .

(٣) أخرجه ابن أبى شيبة (٢/٨٣/٢) ، وعنه أبو يعلى فى (مسنده) (ق ٢/٣٢) ، وإسماعيل القاضى فى كتاب (فضل الصلاة على النبى – صلى الله عليه وسلم) حديث رقم ٢٠ ، وقال الألبانى عند تخريجه فى (تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد) ص ٩٥ : وسنده مسلسل بأهل البيت – رضى الله عنهم – إلا أن أحدهم – وهو على بن عمر – مستور ، كما قال الحافظ فى (التقريب) .

(٤) رواه البخارى (١٥٦/٣ و١٩٨ و١١٤/٨) ، ومسلم (٦٧/٢) ، وأبو عوانة (٣٩٩/١) ، وأحمد (٨٠/٦ و١٢١ و١٤٦ و٢٥٢ و٢٥٥) ، والبغوى فى شرح السنة (ج ١ ص ٤١٥) : كلهم عن عائشة – رضى الله عنها – وقال الألبانى : وسنده صحيح على شرط الشيخين : فانظر (تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد) ص ١٠ .

(٥) أم المؤمنين : عائشة بنت أبى بكر الصديق عبد الله بن عثمان من قريش ، أفقه نساء المؤمنين وأعلمهن بالدين والأدب ، وأحب نساء النبى – صلى الله عليه وسلم – إلى نفسه ، وأكثرهن رواية للحديث عنه ، ولدت بمكة سنة (٩ ق هـ/٦١٣ م)،وتوفيت بالمدينة سنة (٥٨ هـ/٦٧٨ م) ولها بكتب الحديث ٢٢١٠ أحاديث [انظر فى ترجمتها : الإصابة (كتاب النساء) ٧٠١ ، وطبقات ابن سعد ٣٩/٨ ، وأعلام النساء ٧٦٠/٢ ، وحلية الأولياء ٤٣/٢ ، وصبح الأعشى ٤٣٥/٥ ، ومنهاج السنة ١٨٢/٢ – ١٨٦ و١٩٢ – ١٩٨] الأعلام للزركلى ج ٢٤٠/٣ .

(٦) جزء من الآية : ١٦٤ من سورة البقرة .

أحدها : أن السبب المعين لايستقل بالمطلوب ، بل لابد معه من أسباب أُخَرَ ، ومع هذا فلها موانع . فإن لم يكمل الله الأسباب ، ويدفع الموانع : لم يحصل المقصود ، وهو – سبحانه – ماشاء كان – وإن لم يشأ الناس – وما شاء الناس لايكون إلا أن يشاء الله .

الثانى : أن لايجوز أن يعتقد أن الشيء سبب إلا بعلم ، فمن أثبت شيئا سببا بلا علم أو يخالف الشرع : كان مبطلاً ، مثل من يظن أن النذر سبب فى دفع البلاء وحصول النعماء .

وقد ثبت فى الصحيحين عن النبى – صلى الله عليه وسلم – أنه نهى عن النذر وقال : « إِنَّهُ لَا يَأْتِى بِخَيْرٍ ، وَإِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ بِهِ مِنَ الْبَخِيلِ » [١]

الثالث : أن الأعمال الدينية لايجوز أن يتخذ منها شيء سببا إلا أن تكون مشروعة ، فإن العبادات مبناها على التوقيف ، فلا يجوز للإنسان أن يشرك بالله ، فيدعو غيره – وإن ظن أن ذلك سبب فى حصول بعض أغراضه – وكذلك لايعبد الله بالبدع المخالفة للشريعة – وإن ظن ذلك – فإن الشياطين قد تعين الإنسان على بعض مقاصده إذا أشرك ، وقد يحصل بالكفر والفسوق والعصيان بعض أغراض الإنسان ، فلا يحل له ذلك ، إذ المفسدة الحاصلة بذلك أعظم من المصلحة الحاصلة به ، إذ الرسول – صلى الله عليه وسلم – بعث بتحصيل المصالح وتكميلها ، وتعطيل المفاسد وتقليلها ، فما أمر الله به فمصلحته راجحة ، ومانهى عنه : فمفسدته راجحة ، وهذه الجمل : لها بسط لاتحتمله هذه الورقة . والله أعلم .

---

(١) أخرجه البخارى (٢٥٤/٤ و٢٧٤) ، ومسلم (٧٧/٥) ، وأبو داود (٣٨٧) ، والنسائى (١٤٢/٢) ، والدارمى (١٨٥/٢) ، وابن ماجه (٢١٢٢) ، والبيهقى (٧٧/١٠) ، وأحمد (٦١/٢ و ١١٨) : كلهم عن ابن عمر – رضى الله عنهما – ، وقد خرجه الألبانى فى (إرواء الغليل) برقم ٢٥٨٥ ج ٢٠٨/٨

رابعا : فى معنى التوكل

تطرق شيخ الإسلام – رحمه الله – إلى إيضاح معنى التوكل على الله فى عدة مواضع نذكر منها :

* فى رسالته المسماة (بالتحفة العراقية فى الأعمال القلبية) حيث قال (١٧ – ١٠/٣٨) :

وأما المحبة لله والتوكل عليه والإخلاص له ونحو ذلك فهذه كلها خير محض ، وهى حسنة محبوبة فى حق كل أحد من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، ومن قال : إن هذه المقامات تكون للعامة دون الخاصة فقد غلط فى ذلك إن أراد خروج الخاصة عنها ، فإن هذه لايخرج عنها مؤمن قط ، و إنما يخرج عنها كافر أو منافق ، وقد تكلم بعضهم فى ذلك بكلام بينا غلطه فيه وأنه تقصير فى تحقيق هذه المقامات بكلام مبسوط ، وليس هذا موضعه .

ولكن هذه (المقامات) ينقسم الناس فيها إلى خصوص وعموم ، فللخاصة خاصها ، وللعامة عامها . مثال ذلك أن هؤلاء قالوا : (إن التوكل مناضلة عن النفس فى طلب القوت ، والخاص لايناضل عن نفسه . وقالوا : المتوكل يطلب بتوكله أمراً من الأمور ، والعارف يشهد الأمور بفروعها منها فلا يطلب شيئا) فيقال :

أما الأول ، فإن التوكل أعم من التوكل فى مصالح الدنيا ، فإن المتوكل يتوكل على الله فى صلاح قلبه ودينه وحفظ لسانه وإرادته ، وهذا أهم الأمور إليه ، ولهذا يناجى ربه فى كل صلاة بقوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [1] كما فى قوله تعالى : ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ [2] وقوله : ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ .[3] وقوله : ﴿ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ [4].

---

(١) الآية : ٥ من سورة الفاتحة .
(٢) جزء من الآية : ١٢٣ من سورة هود .
(٣) جزء من الآية : ٨٨ من سورة هود .
(٤) جزء من الآية : ٣٠ من سورة الرعد .

فهو قد جمع بين العبادة والتوكل فى عدة مواضع ، لأن هذين يجمعان الدين كله ، ولهذا قال من قال من السلف : إن الله جمع الكتب المنزلة فى القرآن ، وجمع علم القرآن فى المفصل ، وجمع علم المفصل فى فاتحة الكتاب ، وجمع علم فاتحة الكتاب فى قوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (١).

وهاتان الكلمتان هما الجامعتان اللتان للرب والعبد ، كما فى الحديث الذى فى صحيح مسلم عن أبى هريرة عن النبى – صلى الله عليه وسلم – أنه قال : « **يقول الله سبحانه : قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين ، نصفها لى ونصفها لعبدى ، ولعبدى ماسأل** » وقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « **يقول العبد : الحمد لله رب العالمين ، يقول الله : حمدنى عبدى ، يقول العبد : الرحمن الرحيم ، يقول الله : أثنى على عبدى ، يقول العبد : مالك يوم الدين ، يقول الله : مجدنى عبدى ، يقول العبد : إياك نعبد وإياك نستعين ، يقول الله : فهذه الآية بينى وبين عبدى نصفين ولعبدى ماسأل ، يقول العبد : اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، يقول الله : فهؤلاء لعدى ولعبدى ماسأل** » (٥) فالرب – سبحانه – له نصف الثناء والخير ، والعبد له نصف الدعاء والطلب ، وهاتان جامعتان ماللرب سبحانه ، وما للعبد : فإياك نعبد للرب ، وإياك نستعين للعبد .

وفى الصحيحين عن معاذ(٢) رضى الله عنه – قال : كنت رديفا للنبى – صلى الله عليه وسلم – على حمار ، فقال : « **يَامُعَاذَ : أتدرى مَا حَقُّ اللهِ عَلى العِبَادِ ؟** قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : « **حَقُّ اللهِ عَلَى الْعِباد أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شيْئاً ؟ أَتْدرى مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ إِذَا فَعَلُوا ذلِكَ !** » قلت : الله ورسوله

(١) سبق تخريجه .

(٢) هو أبو عبد الرحمن : معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس الأنصارى الخزرجى ، أحد الستة الذين جمعوا القران على عهد النبى – صلى الله عليه وسلم – ، كان أعلم الأمة بالحلال والحرام ، شهد المشاهد كلها مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وبعثه الرسول إلى اليمن قاضيا ومعلما ، له فى كتب الحديث ١٥٧ حديثا ، وكان قد ولد بالمدينة سنة (٢٠ ق . هـ/٦٠٣ م) وتوفى بالأردن سنة (١٨ هـ/٦٣٩ م)] انظر ترجمته فى : ابن سعد ١٢٠/٣ ، والإصابة ٨٠٣٩ ، وأسد الغابة ٣٧٦/٤ ، وحلية الأولياء ٢٢٨/١ وصفة الصفوة ١٩٥/١] الأعلام للزركلى ج ٢٥٨/٧ .

أعلم قال : « حَقُّهُمْ عَلَيْهِ أَنْ لَايُعَذِّبَهُمْ »[١] والعبادة هى الغاية التى خلق الله لها العباد من جهة أمر الله ومحبته ورضاه كما قال – تعالى – : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[٢] وبها أرسل الرسل وأنزل الكتب وهى اسم يجمع كمال الحب لله ونهايته ، وكمال الذل لله ونهايته ، فالحب الخلى عن ذل ، والذل الخلى عن حب لايكون عبادة ، وإنما العبادة مايجمع كمال الأمرين ، ولهذا كانت العبادة لاتصلح إلا لله ، وهى وإن كانت منفعتها للعبد – والله غنى عن العالمين – فهى له من جهة محبته لها ورضاه بها ، ولهـذا كان الله أشد فرحا بتوبة العبد من الفاقد لراحلته عليها طعامه وشرابه فى ارض دوية مهلكة إذا نام آيساً منها ثم استيقظ فوجدها فالله اشد فرحا بتوبة عبده من هذا براحلته ، وهذا يتعلق به أمور جليلة قد بسطناها وشرحناها فى غير هذا الموضع .

والتوكل والاستعانة للعبد ، لانه هو الوسيلة والطريق الذى ينال به مقصوده ومطلوبه من العبادة ، فالاستعانة كالدعاء والمسألة ، وقد روى الطبرانى[٣] فى كتاب الدعاء عن النبى – صلى الله عليه وسلم – قال : « يَقُولُ اللهُ – عَزَّ وَجَلَّ – : يَاابْنَ آدَمَ ! إِنَّمَا هِىَ أَرْبَعٌ : وَاحِدَةٌ لِى ، وَوَاحِدَةٌ لَكَ ، وَوَاحِدَةٌ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ، وَوَاحِدَةٌ بَيْنَكَ وَبَيْنَ خَلْقِى : فَأَمَّا الَّتِى لِى فَتَعْبُدُنِى لَاتُشْرِكُ بِى شَيْئاً ، وَأَمَّا الَّتِى هِىَ لَكَ فَعَمَلُكَ أُجَازِيكَ بِهِ أَحْوَجَ مَاتَكُونُ إِلَيْهِ ، وَأَمَّا الَّتِى بَيْنِى وَبَيْنَكَ فَمِنْكَ الدُّعَاءُ وَعَلَىَّ الْإِجَابَةُ ، وَأَمَّا الَّتِى بَيْنَكَ وَبَيْنَ خَلْقِى فَأْتِ لِلنَّاسِ مَاتُحِبُّ أَنْ يَأْتُوا إِلَيْكَ »[٤].

---

(١) رواه أحمد (٢٢٨/٥ و٢٣٠ و٢٣٤) والشيخان ، والترمذى ، وابن ماجه ، وأوزده الألبانى فى (صحيح الجامع الصغير) رقم ٧٩٦٨ ج ١٣١٩/٢ .

(٢) الآية : ٥٦ من سورة الذاريات .

(٣) هو أبو القاسم : سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمى الطبرانى ، نسبة إلى طبرية الشام ، من كبار المحدثين ، له ثلاثة معاجم فى الحديث وله فى غيره من المصنفات كثير ولد بعكا (٢٦٠ هـ/٨٧٣ م) وجال البلدان ، وتوفى بأصبهان (٣٦٠ هـ/٩٧١ م) [انظر فى ترجمته : وفيات الأعيان ٢١٥/١ ، والنجوم الزاهرة ٥٩/٤ وتهذيب ابن عساكر ٢٤٠/٦ ، ومناقب الإمام أحمد ٥١٣] الأعلام للزركلى ج ١٢١/٣ .

(٤) رواه الطبرانى عن سلمان ، ولكن الذى وجدته بلفظ : ﴿ قال الله تعالى : ياابن ادم ، ثلاث : واحدة لى ، وواحدة لك ، وواحدة بينى وبينك . فأما التى لى فتعبدنى لاتشرك بى شيئاً ، وأما التى لك فما عملت من خير جزيتك به ، فإن أغفر فأنا الغفور الرحيم ، وأما التى بينى وبينك فعليك الدعاء والمسألة ، وعلىّ الاستجابة والعطاء » والحديث فى (كنز العمال) رقم ٣١٤٩ ج ٦٢/٢ .

وكون هذا لله وهذا للعبد هو باعتبار تعلق المحبة والرضا ابتداء ، فإن العبد ابتداء يحب ويريد مايراه ملائما له ، والله – تعالى – يحب ويرضى ماهو الغاية المقصودة فى رضاه ، ويحب الوسيلة تبعا لذلك ،وإلا فكل مأمور به فمنفعته عائدة على العبد ، وكل ذلك يحبه الله ويرضاه ، وعلى هذا فالذى ظن أن التوكل من المقامات العامة ظن أن التوكل لايطلب به إلا حظوظ الدنيا ، وهو غلط ، بل التوكل فى الأمور الدينية أعظم .

وأيضا التوكل من الأمور الدينية التى لاتتم الواجبات والمستحبات إلا بها ، والزاهد فيها زاهد فيما يحبه الله ويأمر به ويرضاه .

و(الزهد المشروع) : هو ترك الرغبة فيما لاينفع فى الدار الآخرة ، وهو فضول المباح التى لايستعان بها على طاعة الله ، كما أن (الورع المشروع) هو ترك ماقد يضر فى الدار الآخرة ، وهو ترك المحرمات والشبهات التى لا يستلزم تركها ترك مافعله أرجح منها ، كالواجبات فأما ماينفع فى الدار الآخرة بنفسه أو يعين على ماينفع فى الدار الآخرة ، فالزهد فيه ليس من الدين ، بل صاحبه داخل فى قوله – تعالى – : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾(1) كما أن الاشتغال بفضول المُباحات ، هو ضد الزهد المشروع ، فإن اشتغل بها عن فِعلِ واجب أو فَعَلَ محرما كان عاصيا ، وإلا كان منقوصا عن درجة المقربين إلى درجة المقتصدين .

و(أيضا) فإن التوكل هو محبوب لله مرضى له مأمور به دائما ، وما كان محبوبا لله مرضيا له مأمورا به دائما لايكون من فعل المقتصدين دون المقربين فهذه ثلاثة أجوبة عن قولهم : المتوكل يطلب حظوظه .

وأما قولهم : إن الأمور قد فرغ منها فهذا نظير ماقاله بعضهم فى الدعاء : إنه لاحاجة إليه ، لأن المطلوب إن كان مقدرا فلا حاجة إليه وإن لم يكن مقدرا لم ينفع الدعاء ، وهذا القول من أفسد الأقوال شرعا وعقلاً .

---

(١) الآية : ٨٧ من سورة المائدة .

وكذلك قول من قال : التوكل والدعاء لايجلب به منفعة ولايدفع به مضرة ، وإنما هو عبادة محضة . وإن حقيقة التوكل بمنزلة حقيقة التفويض المحض ، وهذا وإن كان قاله طائفة من المشائخ فهو غلط أيضا ، وكذلك قول من قال : إن الدعاء إنما هو عبادة محضة .

فهذه الأقوال وما أشبهها يجمعها أصل واحد : وهو أن هؤلاء ظنوا أن كون الأمور مقدرة مقضية يمنع أن تتوقف على أسباب مقدرة – أيضا – تكون من العبد ، ولم يعلموا أن الله – سبحانه – يقدر الأمور ويقضيها بالأسباب التى جعلها معلقة بها فى أفعال العباد ، وغير أفعالهم ، ولهذا كان طرد قولهم : (يوجب تعطيل الأعمال بالكلية) .

وقد سئل النبى – صلى الله عليه وسلم – عن هذا الأصل مرات فأجاب عنه كما أخرجا فى الصحيحين عن عمران بن حصين [(١)] قال : قيل لرسول الله – صلى الله عليه وآله وسلم –: يارسول الله ! أَعُلِمَ أهلُ الجنة من أهل النار ؟ قال : « **نعم** » قالوا : ففيم العمل ؟ قال : « **كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ** » [(٢)] وفى الصحيحين عن على بن أبى طالب [(٣)] قال : (كنا فى جنازة فيها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فجلس ومعه مخصرة [(٤)] فجعل ينكت بالمخصرة فى الأرض ثم رفع رأسه وقال : « **مَامِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَكَانُهَا مِنَ النَّارِ أَوِ الْجَنَّةِ ، إِلَّا وَقَدْ كُتِبَتْ شَقِيَّةً أَوْ سَعِيدَةً** .

قال : فقال رجل من القوم : يانبىَّ الله ! أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل ؟ فمن كان من أهل السعادة ليكونن إلى السعادة ، ومن كان من أهل الشقاوة ليكونن إلى الشقاوة . قال : « **اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ . أَمَّا أَهْلُ**

(١) سبقت الترجمة .
(٢) سبق تخريجه .
(٣) سبقت الترجمة .
(٤) المخصرة كما جاء فى (الفتح) ج ١١/٥٠٥ ، هى عصا أو قضيب ، يمسكه الرئيس ليتوكأ عليه ويدفع به عنه ويشير به لما يريد ، وسميت بذلك لأنها تحمل تحت الخصر غالبا للاتكاء عليها ، وفى اللغة اختصر الرجل : إذا أمسك المخصرة .

السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِلسَّعَادَةِ وَأَمَّا أَهْلُ الشَّقَاوَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِلشَّقَاوَةِ » ثم قال نبى الله - صلى الله عليه وسلم - : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ [1] أخرجه الجماعة فى الصحاح والسنن والمسانيد .

وروى الترمذى [2] : أن النبى - صلى الله عليه وآله وسلم - سئل فقيل : يارسول الله : أرأيت أدوية نتداوى بها ، وَرُقًى نسترق بها ، وتُقًى نتقيها ، هل ترد من قدر الله شيئا ؟ فقال : « **هى من قدر الله** » [3] .

وقد جاء هذا المعنى عن النبى - صلى الله عليه وآله وسلم - فى عدة أحاديث .

فبين - صلى الله عليه وآله وسلم - أن تقدم العلم والكتاب بالسعيد والشقى لاينافى أن تكون سعادة هذا بالأعمال الصالحة ، وشقاوة هذا بالأعمال السيئة ، فإنه - سبحانه - يعلم الأمور على ماهى عليه ، وكذلك يكتبها ، فهو يعلم أن السعيد يسعد بالأعمال الصالحة ، والشقى يشقى بالأعمال السيئة ، فمن كان سعيدا ييسر للأعمال التى تقتضى السعادة ، ومن كان شقيا ييسر للأعمال التى تقتضى الشقاوة ، وكلاهما ميسر لما خلق له ، وهو مايصير إليه من مشيئة الله العامة الكونية التى ذكرها الله - سبحانه - فى كتابه فى قوله - تعالى - : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ [4] .

وأما ما خلقوا له من محبة الله ورضاه - وهو إرادته الدينية التى أمروا بموجبها - فذلك مذكور فى قوله : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [5] .

والله - سبحانه - قد بين فى كتابه فى كل واحدة من (الكلمات) ، و(الأمر) ، و(الإرادة) ، و(الإذن) ، و(الكتاب) ، و(الحكم) ، و(القضاء) ،

---

(١) سبق تخريجه .
(٢) سبقت الترجمة .
(٣) سبق تخريجه .
(٤) جزء من الآيتين : ١١٨ و١١٩ من سورة هود .
(٥) الآية : ٥٦ من سورة الذاريات .

و(التحريم) ، ونحو ذلك ماهو دينى موافق لمحبة الله ورضاه وأمره الشرعى ، وماهو كونى موافق لمشيئته الكونية .

مثال ذلك أنه قال فى (الأمر الدينى) : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ [1] وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ [2] ونحو ذلك .

وقال فى (الكونى) : ﴿ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [3]. وكذلك قوله : ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ ﴾ [4] على إحدى الأقوال فى هذه الآية .

وقال فى(الإرادة الدينية) : ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ ﴾ [5]، ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ وَيَهۡدِيَكُمۡ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَيَتُوبَ عَلَيۡكُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [6]﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ ﴾ [7].

وقال فى (الإرادة الكونية) : ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ [8]، وقال : ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ﴾ [9] وقال نوح — عليه السلام —: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ ﴾ [10] وقال — تعالى — : ﴿ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [11].

---

(١) جزء من الآية : ٩٠ من سورة النحل .
(٢) جزء من الآية : ٥٨من سورة النساء .
(٣) الآية : ٨٢ من سورة يس .
(٤) جزء من الآية : ١٦ من سورة الإسراء .
(٥) جزء من الآية : ١٨٥ من سورة البقرة .
(٦) الآية : ٢٦ من سورة النساء .
(٧) جزء من الآية : ٦من سورة المائدة .
(٨) جزء من الآية : ٢٥٣ من سورة البقرة .
(٩) جزء من الآية : ١٢٥ من سورة الأنعام .
(١٠) جزء من الآية : ٣٤ من سورة هود .
(١١) الآية : ٨٢ من سورة يس .

وقال – تعالى – فى (الإذن الدينى) : ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [1].

وقال – تعالى – فى (الكونى) : ﴿ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [2].

وقال – تعالى – فى (القضاء الدينى) : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ [3] أى : أمَر .

وقال – تعالى – فى (الكونى) : ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ [4].

وقال – تعالى – فى (الحكم الدينى) : ﴿ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ [5] وقال – تعالى – : ﴿ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ﴾ [6].

وقال – تعالى – فى (الكونى) عن ابن يعقوب : ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ [7] وقال – تعالى – : ﴿ قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [8].

وقال فى (التحريم الدينى) : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ ﴾ [9] : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ ﴾ [10] الآية .

(١) الآية : ٥ من سورة الحشر .
(٢) جزء من الآية : ١٠٢ من سورة البقرة .
(٣) جزء من الآية : ٢٣ من سورة الإسراء .
(٤) جزء من الآية : ١٢ من سورة فصلت .
(٥) جزء من الآية الأولى من سورة المائدة .
(٦) جزء من الآية : ١٠ من سوروة الممتحنة .
(٧) جزء من الآية : ٨٠ من سورة يوسف .
(٨) الآية : ١١٢ من سورة الأنبياء
(٩) جزء من الآية : ٣ من سورة المائدة .
(٤١) جزء من الآية : ٢٣ من سورة النساء .

وقال – تعالى – فى (التحريم الكونى) : ﴿ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾(١) وقال– تعالى – : ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ (٢)

وقال – تعالى – فى (الكلمات الدينية) : ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ (٣) .

وقال – تعالى – فى (الكونية) : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ﴾ (٤) .

ومنه قوله – صلى الله عليه وسلم – المستفيض عنه من وجوه فى الصحاح والسنن و المسانيد أنه كان يقول فى استعاذته : « **أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ الَّتِي لَايُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ** » (٥) ومن المعلوم أن هذا هو الكونى الذى لايخرج منه شيء عن مشيئته وتكوينه ، وأما الكلمات الدينية فقد خالفها الفجار بمعصيته .

والمقصود هنا : أنه – صلى الله عليه وسلم – بين ان العواقب التى خلق لها الناس من سعادة وشقاوة ييسرون لها بالأعمال التى يصيرون بها إلى ذلك ، كما أن سائر المخلوقات كذلك فهو – سبحانه – يخلق الولد وسائر الحيوان فى الأرحام بما يقدره من اجتماع الأبوين على النكاح ، واجتماع الماءين فى الرحم ، فلو قال الإنسان : أنا أتوكل ولا أطأ زوجتى ، إذا وطىء وعزل الماء ، فإن عزل الماء لايمنع انعقاد الولد إذا شاء الله ، إذ قد يسبق الماء بغير اختياره .

---

(١) جزء من الآية : ٢٦ من سورة المائدة .

(٢) الآيتان : ٢٤ ، ٢٥ من سورة المعارج .

(٣) جزء من الآية : ١٢٤ من سورة البقرة .

(٤) جزء من الآية : ١٣٧ من سورة الأعراف .

(٥) رواه ابن أبى شيبة ، وأحمد ، والبزار ، والحسن بن سفيان ، وأبو زرعة فى مسنده ، وابن منده ، وأبو نعيم ، والبيهقى ، قال صاحب (كنز العمال) : وهو صحيح (حديث رقم ٥٠١٨ ج ٢/١٦٥) ، وفيه (٩٣٨ ج ٢/٢٦٥) أنه من مراسيل مكحول الشامى : أبو عبدالله الفقيه الدمشقى : روى عن النبى – صلى الله عليه وسلم – مرسلاً وعن بعض الصحابة – رضى الله عنهم – ، وذكره ابن سعد فى الطبقة الثالثة من تابعى أهل الشام ، توفى سنة ١١٣ هـ (راجع ميزان الاعتدال للذهبى ١٧٧/٤ وتهذيب التهذيب لابن حجر ٢٨٩/١٠) .

ومن هذا ماثبت في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري [1] قال : خرجنا مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في غزوة بني المصطلق فأصبنا سَبْيًا من العرب فاشتهينا النساء ، واشتدت علينا العزبة ، وأحببنا العزل ، فسألنا عن ذلك رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال : « **مَا عَلَيْكُمْ أَلَّا تَفْعَلُوا فَإِنَّ اللهَ قَدْ كَتَبَ مَاهُوَ خَالِقٌ إلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ** » [2] ، وفي صحيح مسلم عن جابر [3] أن رجلاً أتى النبي – صلى الله عليه وسلم – فقال : إن لي جاريةً هي خادمتنا وسانيتنا [4] في النخل ، وأنا أطوف عليها وأكره أن تحمل فقال : « **اعْزِلْ عَنْهَا إنْ شِئْتَ فَإِنَّهُ سَيَأْتِيهَا مَاقُدِّرَ لَهَا** » [5].

وهذا مع أن الله – سبحانه – قادر على ماقد فعله من خلق الإنسان من غير أبوين كما خلق آدم ، ومن خلقه من أب فقط ، كما خلق حواء من ضلع آدم القصير ، ومن خلقه من أم فقط كما خلق المسيح بن مريم – عليه السلام – لكن خلق ذلك بأسباب أخرى غير معتادة .

وهذا الموضع وإن كان إنما يجحده الزنادقة المعطلون للشرائع فقد وقع في كثير من دقه كثير من المشايخ المعظمين ، يسترسل أحدهم مع القدر غير محقق لما أمر به

---

(١) سبقت الترجمة .

(٢) رواه البخاري ، ومسلم (١٥٩/٤) ، وأحمد (١١/٣ و٢٢ و٤٩ و٥٣ و٦٨ و٧٨ و٤٥٠) ، وابن ماجه ، وأبو داود (٢١٧٠ و٢١٧١) عن أبي سعيد ، وأطراف الروايات المختلفة للحديث منها : « **أو أنكم تفعلون ذلك ؟** » ومنها « **لاعليكم أن لاتفعلوا** » ومنها « **إنكم لتفعلون ذلك** » كما رواه الطبراني عن حذيفة ، ومنها « **اصنعوا مابدا لكم** » كما في إحدى روايات أحمد . والحديث أخرجه النسائي كذلك (٨٤/٢ ، ٨٥) وقد أورده الألباني في (صحيح الجامع الصغير) برقم ١٠٣٢ ج ٢١/٣ .

(٣) هو جابر بن عبدالله بن عمرو بن حرام الخزرجي الأنصاري السلمي : من الصحابة الغزاة ، غزا تسع عشرة غزوة ، ومن أفقههم بحديث رسول الله – صلى الله عليه وسلم – روى له البخاري ومسلم وغيرهما ١٥٤٠ حديثا ، ولد سنة (١٦ ق . هـ/٦٠٧ م) وتوفي سنة (٧٨ هـ /٦٩٧ م) [انظر ترجمته في : الإصابة ٢١٣/١ ، وتهذيب الأسماء ١٤٢/١ ، وذيل المذيل ٢٢] الأعلام للزركلي ج ١٠٤/٢ .

(٤) سانيتنا : أي التي تسقي لنا النخل .

(٥) رواه مسلم (١٦٠/٤) ، وأبو داود (٣٣٩/١) ، والبيهقي (٢٢٩/٧) ، وأحمد (٣١٢/٣ و ٣٨٦) ، وأورده الألباني في (آداب الزفاف) ص ١٣١ .

ونهى عنه ، ويجعل ذلك من باب التفويض والتوكل ، والجرى مع الحقيقة القدرية ، ويحسب أن قول القائل : ينبغي للعبد أن يكون مع الله كالميت بين يدى الغاسل . يتضمن ترك العمل بالامر و النهى حتى يترك ما أمر به ، ويفعل مانهى عنه ، وحتى يضعف عنده النور والفرقان الذى يفرق به بين ما أمر الله به وأحبه ورضيه ، وبين مانهى عنه وأبغضه وسخطه فيسوى بين مافرق الله بينه ، كما قال - تعالى - : ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (1) وقال - تعالى - : ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ (2) وقال - تعالى - : ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ (3) وقال - تعالى - : ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (4) وقال - تعالى - : ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ۖ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ (5) وأمثال ذلك .

حتى يفضى الأمر بغُلاتِهِمْ إلى عدم التمييز بين الأمر بالمأمور النبوى الإلهى الفرقاني الشرعى الذى دل عليه الكتاب والسنة ، وبين مايكون فى الوجود من الأحوال التى تجرى على أيدى الكفار والفجار ، فيشهدون وجه الجمع من جهة كون الجميع بقضاء الله وقدره وربوبيته وإرادته العامة ، وأنه داخل فى ملكه ، ولايشهدون وجه الفرق الذى فرق الله به بين أوليائه وأعدائه ، والأبرار

---

(1) الآية : ٢١ من سورة الجاثية .
(2) الآيتان : ٣٥ ، ٣٦ من سورة القلم .
(3) الآية : ٢٨ من سورة ص .
(4) جزء من الآية ٩ من سورة الزمر .
(5) الآيات : ١٩ - ٢٢ من سورة فاطر .

والفجار ، والمؤمنين والكافرين ، وأهل الطاعة الذين أطاعوا أمره الدينى ، وأهل المعصية الذين عصوا هذا الأمر ويستشهدون فى ذلك بكلمات مجملة نقلت عن بعض الأشياخ ، أو ببعض غلطات بعضهم .

وهذا (أصل عظيم) من أعظم مايجب الاعتناء به على أهل طريق الله السالكين سبيل الإرادة : إرادة الذين يريدون وجهه ، فإنه قد دخل بسبب إهمال ذلك على طوائف منهم من الكفر والفسوق والعصيان ما لايعلمه إلا الله ، حتى يصيروا معاونين على البغى والعدوان للمسلطين فى الأرض من أهل الظلم والعلو ، كالذين يتوجهون بقلوبهم فى معاونة من يَهْوَوْنَهُ من أهل العلو فى الأرض والفساد ظَانِّينَ أنهم إذا كانت لهم أحوال أثروا بها فى ذلك كانوا بذلك من أولياء الله — فإن القلوب لها من التأثير أعظم مما للأبدان لكن إن كانت صالحة كان تأثيرها صالحا ، وإن كانت فاسدة كان تأثيرها فاسدا ، فالأحوال يكون تأثيرها محبوبا لله تارة ، ومكروها لله أخرى ، وقد تكلم الفقهاء على وجوب القَوَدِ على من يقتل غيره فى الباطن حيث يجب القود فى ذلك — ويستشهدون ببواطنهم وقلوبهم الأمر الكونى ، ويعدون مجرد خرق العادة لأحدهم بكشف يكشف له أو بتأثير يوافق إرادته هو كرامة من الله له ، ولايعلمون أنه فى الحقيقة إهانة ، وأن الكرامة لزوم الاستقامة ، وأن الله لم يكرم عبده بكرامة أعظم من موافقته فيما يحبه ويرضاه ، وهو طاعته وطاعة رسوله وموالاة أوليائه ومعاداة أعدائه وهؤلاء هم أولياء الله الذين قال الله فيهم : ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (١)

فإن كانوا موافقين فيما أوجبه عليهم فهم من المقتصدين ، وإن كانوا موافقين فيما أوجبه وأحبه فهم من المقربين ، مع أن كل واجب محبوب وليس كل محبوب واجبا ، وأما مايبتلى الله به عبده من السراء بخرق العادة أو بغيرها ، أو بالضراء فليس ذلك لأجل كرامة العبد على ربه ، ولا هوانه عليه ، بل قد يسعد بها قوم إذا أطاعوه فى ذلك ، وقد يشقى بها قوم إذا عصوه فى ذلك .

---

(١) الآية :٦٢ من سورة يونس .

قال الله – تعالى – : ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ﴾ [1] ولهذا كان الناس فى هذه الأمور على (ثلاثة أقسام) .

(قسم) ترتفع درجاتهم بخرق العادة إذا استعملوها فى طاعة الله .

و(قوم) [2] يتعرضون بها لعذاب الله إذا استعملوها فى معصية الله كبلعام [3] .

و(قوم) تكون فى حقهم بمنزلة المباحات .

والقسم الأول هم المؤمنون حقا ، المتبعون لنبيهم سيد ولد آدم الذى إنما كانت خوارقه لحجة يقيم بها دين الله ، أو لحاجة يستعين بها على طاعةالله ولكثرة الغلط فى هذا الأصل نهى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عن الاسترسال مع القدر بدون الحرص على فعل المأمور الذى ينفع العبد ، فروى مسلم [4] فى صحيحه عن أبى هريرة [5] قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – :« **المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كلّ خير . احرص على ماينفعك واستعن بالله ولاتعجزن ، وإن أصابك شىء فلا تقل : لو أنى فعلت كان كذا وكذا ، ولكن قل : قدر الله وماشاء فعل ، فإن (لو) تفتح عمل الشيطان** » [6].

وفى سنن أبى داود : أن رجلين اختصما إلى النبى – صلى الله عليه وسلم – فقضى على أحدهما ، فقال المقضى عليه : حسبى الله ونعم الوكيل . فقال رسول

---

(١) الآيتان : ١٥ ، ١٦ وأول الآية : ١٧ من سورة الفجر .

(٢) القوسان من وضعنا ، وكذلك مايأتى .

(٣) بلعام بن باعور : الذى نزل فيه قوله تعالى : ﴿ واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ﴾ الآية ١٧٥ من سورة الأعراف .. وقال ابن عباس وغيره : إنه كان يعلم الاسم الأعظم وأن قومه سألوه أن يدعو على موسى والمؤمنين ، وفى ذلك قصة طويلة : ذكرها ابن إسحٰق ، وابن كثير فى (التفسير) ٣/٢٥٠ – ٢٥٥ ، وقال فى (البداية والنهاية) ١/٣٠٠ : (وهذا الذى ذكره ابن إسحاق من قصة بلعام صحيح ذكره غير واحد من علماء السلف) .

(٤ ، ٥) سبقت الترجمة .

(٦) سبق تخريجه .

الله – صلى الله عليه وسلم : « **إِنَّ اللهَ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ ، وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالْكَيْسِ فَإِذَا غَلَبَكَ أَمْرٌ فَقُلْ : حَسْبِيَ اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ** » [1] فأمر النبي – صلى الله عليه وسلم – المؤمن أن يحرص على ماينفعه وأن يستعين بالله ، وهذا مطابق لقوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [2] وقوله تعالى : ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ [3] فإن الحرص على ماينفع العبد هو طاعة الله وعبادته ، إذ النافع له هو طاعة الله ولا شيء أنفع له من ذلك ، وكل مايستعان به على الطاعة فهو طاعة وإن كان من جنس المباح .

قال النبي – صلى الله عليه وسلم – في الحديث الصحيح لسعد [4] : « **إِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللهِ إِلَّا ازْدَدْتَ بِهَا دَرَجَةً وَرِفْعَةً حَتَّى اللُّقْمَةَ تَضَعُهَا فِي فِيِّ امْرَأَتِكَ** » [5] فأخبر النبي – صلى الله عليه وسلم – أن الله يلوم على العجز الذي هو ضد الكيس ، وهو التفريط فيما يؤمر بفعله ، فإن ذلك ينافي القدرة المقارنة للفعل . وإن كان لاينافي القدرة المتقدمة التي هي مناط الأمر والنهي.

فإن الاستطاعة التي توجب الفعل تكون مقارنة له ولاتصلح إلا لمقدورها ، كما

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) الآية : ٥ من سورة الفاتحة .

(٣) الآية : ١٢٣ من سورة هود .

(٤) هو أبو إسحاق : سعد بن أبي وقاص مالك بن أهيب بن عبد مناف القرشي الزهري : فارس الإسلام فاتح العراق ومدائن كسرى ، ومؤسس الكوفة ، أول من رمى بسهم في سبيل الله ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة ، أسلم وهو ابن ١٧ سنة ، وشهد بدرا وغيرها ، ولد بمكة سنة (٢٣ ق . هـ/٦٠٠ م) وتوفي بالعقيق قرب المدينة (٥٥ هـ/٦٧٥ م) ودفن بالمدينة ، له في كتب الأحاديث ٢٧١ حديثا[انظر ترجمته في : التهذيب ٤٨٣/٣ ، وصفة الصفوة ١٣٨/١ ، وحلية الأولياء ٩٢/١ والإصابة ٣١٨٧ وغيرها] الأعلام للزركلي ٨٧/٣ .

(٥) رواه البخاري (١٨٥/٢ و ٤٨٥/٣) ، ومسلم (٧١/٥) ، والنسائي (١٢٦/٢) ، وأحمد (١٧٢/١) ، وأبو داود (٢٨٦٤) ، والترمذي (١٥/٢) ، وابن ماجه (٢٧٠٨) ، ومالك (٤/٧٦٣/٢) ، وقال الترمذي : حديث حسن صحيح ، وقد خرجه الألباني في (إرواء الغليل) برقم ٨٩٩ ج ٤١٦/٣ وطرف الحديث : (الثلث والثلث كثير) .

ذكرها الله – تعالى – فى قوله : ﴿ مَاكَانُواْيَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ ﴾ (١) وفى قوله : ﴿ وَكَانُواْلَايَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴾ (٢) وأما الاستطاعة التى يتعلق بها الأمر والنهى فتلك قد يقترن بها الفعل وقد لايقترن ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ (٣) وقول النبى – صلى الله عليه وسلم – لعمران بن الحصين (٤) « **صَلِّ قَائِماً ، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِداً ، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ** » (٥)..

فهذا الموضع قد انقسم الناس فيه إلى (أربعة أقسام) :

* قوم ينظرون إلى جانب الأمر والنهى والعبادة والطاعة شاهدين لإلهية الرب – سبحانه – الذى أمروا أن يعبدوه ، ولاينظرون إلى جانب القضاء والقدر والتوكل والاستعانة ، وهو حال كثير من المتفقهة والمتعبدة ، فهم من حسن قصدهم وتعظيمهم لحرمات الله ولشعائره يغلب عليهم الضعف والعجز والخذلان ؛ لأن الاستعانة بالله والتوكل عليه ، واللجأ إليه والدعاء له هى التى تقوى العبد وتيسر عليه الأمور .

ولهذا قال بعض السلف : من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله ،وفى الصحيحين عن عبدالله بن عمرو (٦) « **أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – صفته فى التوراة : إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وحرزا للأميين ، أنت عبدى ورسولى ، سميتك المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ، ولا صخاب بالاسواق ، ولايجزى بالسيئة السيئة ولكن يجزى بالسيئة الحسنة ، ويعفو ويغفر**

---

(١) جزء من الآية : ٢٠ من سورة هود .

(٢) جزء من الآية : ١٠١ من سورة الكهف .

(٣) جزء من الآية : ٩٧ من سورة آل عمران

(٤) سبقت الترجمة .

(٥) رواه البخارى (٢٨٣/١) ، وكذا أبو داود (٩٥٢) ، والترمذى (٢٠٨/٢) ، وابن ماجه (١٢٢٣) ، والدارقطنى (١٤٦) ، والبيهقى (٣٠٤/٢) ، وأحمد (٤٢٦/٤) ، والنسائى (٢٤٥/١) ، وقد خرجه الألبانى فى (إرواء الغليل) حديث رقم ٢٩٩ ج ٨/٢ .

(٦) سبقت الترجمة .

ولن أقبضه حتى أقيم به الملة العوجاء ، فأفتح به أعينا عميا ، وآذانا صُماً وقلوبا غلفا بان يقولوا : لا إلـه إلا الله »[(١)] .

ولهذا روى أن حملة العرش إنما أطاقوا حمل العرش بقولهم : لاحول ولا قوة إلا بالله ، وقد ثبت فى الصحيحين عن النبى – صلى الله عليه وسلم : « أنّها كنزٌ مِنْ كُنوزِ الجَنَّةِ »[(٢)] قال تعالى : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾[(٣)] وقال – تعالى -: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾[(٤)] إلى قوله : ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[(٥)] وفى صحيح البخارى[(٦)] عن ابن عباس – رضى الله عنه – فى قوله : ﴿ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ قالها إبراهيم الخليل حين ألقى فى النار وقالها محمد – صلى الله عليه وسلم – حين قال لهم الناس : إن الناس قد جمعوا لكم[(٧)] .

* و(قسم ثان) : يشهدون ربوبية الحق وافتقارهم إليه ويستعينون به لكن على أهوائهم وأذواقهم ، غير ناظرين إلى حقيقة أمره ونهيه ورضاه وعضبه ومحبته ، هذا حال كثير من المتفقرة[(٨)] والمتصوفة : ولهذا كثيرا مايعملون على الأحوال التى يتصرفون بها فى الوجود ، ولايقصدون مايرضى الرب ويحبه ، وكثيرا مايغلطون فيظنون أن معصيته هى مرضاته فيعودون إلى تعطيل الأمر والنهى

---

(١) رواه البخارى فى (كتاب البيوع) رقم ٥٠ ، الحديث رقم ٢١٢٥ من (فتح البارى) ج ٤٠٢/٤ ، وأورده أيضا فى (كتاب التفسير) باب (إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا) الحديث رقم ٤٨٣٨ من (الفتح) ج ٤٤٩/٨ .

(٢) رواه البخارى فى (كتاب الدعوات) باب (الدعاء إذا علا عقبة) وهو فى (فتح البارى) رقم ٦٣٨٤ ج ١٩١/١١ ، وكذا رواه مسلم فى (كتاب الذكر) باب (فى رفع الصوت بالذكر) (٧٣/٨) وهو فى (مختصر صحيح مسلم للمنذرى) برقم ١٨٩٣ ص ٥٠٠ وطرف الحديث (أيها الناس أربعوا على أنفسكم) .

(٣) جزء من الآية : ٣ من سورة الطلاق .

(٤) الآية : ١٧٣ من سورة آل عمران .

(٥) جزء من الآية : ١٧٥ من نفس السورة .

(٦) سبقت الترجمة

(٧) سبق تخريجه .

(٨) المتفقرة : هم جماعة الصوفية الذين يطلقون على أنفسهم اسم (الفقراء) .

ويسمون هذا حقيقة ، ويظنون أن هذه الحقيقة القدرية يجب الاسترسال معها دون مراعاة الحقيقة الأمرية الدينية التى هى تحوى مرضاة الرب ومحبته وأمره ونهيه ظاهراً وباطناً .

وهؤلاء كثيرا مايسلبون أحوالهم ، وقد يعودون إلى نوع من المعاصى والفسوق ، بل كثير منهم يرتد عن الإسلام لأن العاقبة للتقوى ، ومن لم يقف عند أمر الله ونهيه فليس من المتقين ، فهم يقعون فى بعض ماوقع المشركون فيه تارة فى بدعة يظنونها شرعة ، وتارة فى الاحتجاج بالقدر على الأمر ، و الله – تعالى – لما ذكر ماذم به المشركين فى سورة الأنعام والأعراف ذكرماابتدعوه من الدين وجعلوه شرعة كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ﴾ (1) وقد ذمهم على أن حرموا مالم يحرمه الله ، وأن شرعوا مالم يشرعه الله ، وذكر احتجاجهم بالقدر فى قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ ﴾ (2) ونظيره فى (النحل) و(يس) و(الزخرف) وهؤلاء يكون فيهم شبه من هذا وهذا .

* وأما (القسم الثالث) : وهو من أعرض عن عبادة الله واستعانته به ، فهؤلاء شر الأقسام .

* و(القسم الرابع) هو القسم المحمود ، وهو حال الذين حققوا ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (3) وقوله : ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ (4) فاستعانوا به على طاعته ، وشهدوا أنه إلههم الذى لايجوز أن يعبد إلا إياه بطاعته وطاعة رسوله ، وأنه ربهم الذى ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ (5) وأنه ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ (6) ﴿وَإِن

---

(1) جزء من الآية ٢٨ من سورة الأعراف .
(2) جزء من الآية : ١٤٨ من سورة الأنعام .
(3) الآية : ٥ من سورة الفاتحة .
(4) جزء من الآية : ١٢٣ من سورة هود .
(5) جزء من الآية : ٥١ من سورة الأنعام .
(6) جزء من الآية : ٢ من سورة فاطر .

﴿يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ (١) ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾ (٢) .

ولهذا قال طائفة من العلماء : الالتفات إلى الأسباب شرك فى التوحيد ، ومحو الأسباب أن تكون أسبابا نقص فى العقل ، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح فى الشرع ، وإنما التوكل المأمور به ما جتمع فيه مقتضى التوحيد والعقل والشرع .

فقد تبين أن من ظن التوكل من مقامات عامة أهل الطريق فقد غلط غلطا شديدا ، وإن كان من أعيان المشائخ - كصاحب (علل المقامات) (٣) - وهو من أجل المشائخ ، وأخذ ذلك عنه صاحب (محاسن المجالس) (٤) وظهر ضعف حجة من قال ذلك لظنه أن المطلوب به حظ العامة فقط ، وظنه أنه لافائدة له فى تحصيل المقصود ، و هذه حال من جعل الدعاء كذلك ، وذلك بمنزلة من جعل الأعمال المأمور بها كذلك ، كمن اشتغل بالتوكل عن مايجب عليه من الأسباب التى هى عبادة وطاعة مأمور بها ، فإن غلط هذا فى ترك الأسباب المأمور بها التى هى داخلة فى قوله - تعالى - : ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ (٥) كغلط الأول فى ترك التوكل المأمور به الذى هو داخل فى قوله - تعالى - : ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ (٥) .

لكن يقال : من كان توكله على الله ودعاؤه له هو فى حصول مباحات فهو من العامة ، وإن كان فى حصول مستحبات وواجبات فهو من الخاصة ، كما أن من دعاه وتوكل عليه فى حصول محرمات فهو ظالم لنفسه ، ومن أعرض عن التوكل فهو عاص لله ورسوله ، بل خارج عن حقيقة الإيمان ، فكيف يكون هذا المقام

---

(١) جزء من الآية : ١٠٧ من سورة يونس . (٢) جزء من الآية : ٣٨ من سورة الزمر .

(٣) هو شيخ الإسلام : عبدالله بن محمد بن على الهروى الحنبلى ، المتوفى فى سنة ٤٨١ هـ .

(٤) هو أبو العباس بن عريف أحمد بن محمد الصنهاجى الأندلسى المعروف بابن العريف ، المتوفى سنة ٥٣٦ هـ .

(٥) جزء من الآية : ١٢٣ من سورة هود

للخاصة ، قال الله - تعالى - : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ [١] وقال - تعالى - : ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ [٢] وقال - تعالى - : ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [٣] وقال - تعالى - : ﴿ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ ﴾ [٤] إلى قوله : ﴿ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [٥] .

وقد ذكر الله هذه الكلمة (حسبى الله) فى جلب المنفعة تارة ، وفى دفع المضرة أخرى (فالأولى) : فى قوله - تعالى -: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ ﴾ [٦] الآية .

(الثانية) فى قوله : ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ [٧] وفى قوله - تعالى - : ﴿ وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ ﴾ [٨] وقوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ ﴾ [٩] يتضمن الأمر بالرضا والتوكل .

---

(١) الآية : ٨٤ من سورة يونس .

(٢) جزء من الآية : ١٦٠ من سورة آل عمران .

(٣) ذكرت ست مرات فى القرآن الكريم فى الآية ١٢٢ من سورة آل عمران ، والآية ١٦٠ منها والآية ١١ من سورة المائدة . والآية ٥١ من سورة التوبة ، والآية ١١ من سورة إبراهيم ، والآية ١٢ منها والآية ١٠ من سورة المجادلة ، والآية ١٣ من سورة التغابن .

(٤) جزء من الآية : ٣٨ من سورة الزمر

(٥) جزء من الآية : نفسها من سورة الزمر

(٦) جزء من الآية : ٥٩ من سورة التوبة .

(٧) الآية : ١٧٣ من سورة آل عمران .

(٨) جزء من الآية : ٦٢ من سورة الأنفال .

(٩) جزء من الآية : ٥٩ من سورة التوبة .

والرضا والتوكل يكتنفان المقدور ، فالتوكل قبل وقوعه . والرضا بعد وقوعه ، ولهذا كان النبى – صلى الله عليه وسلم – يقول فى الصلاة : « **اللَّهُمَّ بِعِلْمِكَ الْغَيْبَ وَبِقُدْرَتِكَ عَلَى الْخَلْقِ أَحْيِنِى مَا كَانَتِ الْحَيَاةُ خَيْراً لِى ، وَتَوَفَّنِى إِذَا كانت الْوَفَاةُ خَيْراً لِى ، اللَّهُمَّ إِنِّى أَسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ فى الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، وَأَسْأَلُكَ كَلِمَةَ الْحَقِّ فى الْغَضَبِ وَالرِّضَا ، وَأَسْأَلُكَ الْقَصْدَ فى الْفَقْرِ وَالْغِنَى ، وَأَسْأَلُكَ نَعِيماً لَايَنْفَدُ ، وَأَسْأَلُكَ قُرَّةَ عَيْنٍ لَاتَنْقَطِعُ ، اللَّهُمَّ إِنِّى أَسْأَلُكَ الرِّضَا بَعْدَ الْقَضَاءِ ، وَأَسْأَلُكَ بَرْدَ الْعَيْشِ بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ ، وَأَسْأَلُكَ الشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ مِنْ غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ ، اللَّهُمَّ زَيِّنَّا بِزِينَةِ الْإِيمانِ ، وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِينَ** » (١) رواه أحمد (٢) ، والنسائى (٢) ، من حديث عمار بن ياسر (٣) .

وأما مايكون قبل القضاء فهو عزم على الرضا لاحقيقة الرضا ، ولهذا كان طائفة من المشائخ يعزمون على الرضا قبل وقوع البلاء ، فإذا وقع انفسخت عزائمهم كما يقع نحو ذلك فى الصبر وغيره كما قال – تعالى – : ﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ (٤) وقال – تعالى – : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ (٥) نزلت هذه الآية لما قالوا : لو علمنا أى الأعمال أحب إلى الله لعملناه ، فأنزل الله – سبحانه وتعالى – آية الجهاد فكرهه من كرهه .

---

(١) ورواه الحاكم عن عمار (٥٢٤/١) ، وصححه الألبانى فى (صحيح الجامع الصغير) رقم ١٣٠١ ج ٢٧٩/١ .

(٢) سبقت الترجمة .

(٣) أبو اليقظان : عمار بن ياسر بن عامر الكنانى المذحجى العنسى القحطانى : الصحابى الجليل أحد السابقين إلى الإسلام الجاهرين به ، هاجر إلى المدينة وشهد بدراً وأُحُداً والخندق وبيعة الرضوان ، بانى مسجد قباء (أول مسجد فى الإسلام) ، ولد بمكة سنة (٥٧ ق . هـ /٥٦٧ م) واستشهد فى (صفين) عن ثلاث وتسعين سنة (٣٧ هـ/٦٥٧ م) ، وله فى كتب الحديث ٦٢ حديثا [انظر ترجمته فى : الاستيعاب بهامش الإصابة ٤٦٩/٢ ، والإصابة ٥٧٠٦ ، وحلية الأولياء ١٣٩/١ ، وصفة الصفوة ١٧٥/١] الأعلام للزركلى ج ٣٦/٥ .

(٤) الآية : ١٤٣ من سورة آل عمران . (٥) الآيات : ٢ – ٤ من سورة الصف .

ولهذا كره للمرء أن يتعرض للبلاء بأن يوجب على نفسه مالا يوجبه الشارع عليه بالعهد والنذر ونحو ذلك ، أو يطلب ولاية ، أو يقدم على بلد فيه طاعون . كما ثبت فى الصحيحين من غير وجه عن النبى – صلى الله عليه وسلم – أنه نهى عن النذر ، وقال : « **إِنَّهُ لَايَأْتِى بِخَيْرٍ وَإِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ بِهِ مِنَ الْبَخِيلِ.** » (١) وثبت عنه فى الصحيحين أنه قال لعبد الرحمن بن سمرة (٢) : « **لَاتَسْأَلِ الْإِمَارَةَ فَإِنَّكَ إِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وُكِلْتَ إِلَيْهَا ، وَإِنْ أُعْطِيتَهَا مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا ، وَإِذَا حَلَفْتَ عَلَى يَمِينٍ فَرَأَيْتَ غَيْرَهَا خَيْراً مِنْهَا فَأْتِ الَّذِى هُوَ خَيْرٌ وَكَفِّرْ عَنْ يَمِينِكَ** » (٣). وثبت عنه فى الصحيحين أنه قال فى الطاعون : « **إِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ فَلَا تَقْدُمُوا عَلَيْهِ وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ فِيهَا فَلَا تَخْرُجُوا فِرَاراً مِنْهُ** » (٤) وثبت عنه فى الصحيحين أنه قال : « **لَاتَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ وَاسْأَلُوا اللهَ الْعَافِيَةَ وَلِكَنْ إِذَا لَقِيتُمْ فَاصْبِرُوا وَاعْلَمُوا أَنَّ الجنة تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ** » (٥) وأمثال ذلك مما يقتضى أن الإنسان لاينبغى له أن يسعى فيما يوجب عليه أشياء ويحرم عليه أشياء فيبخل بالوفاء ، كما يفعل كثير ممن يعاهد الله عهودا على أمور ، وغالب هؤلاء يبتلون بنقض العهود .

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) هو أبو سعيد : عبد الرحمن بن سمرة بن حبيب بن عبد شمس القرشى ، أسلم يوم فتح مكة وشهد غزوة مؤتة وكان من القادة الفاتحين لبلاد فارس ، وولى سجستان مدة وسكن البصرة التى توفى فيها (٥٠ هـ/٦٧٠ م) له فى كتب الحديث ١٤ حديثا [انظر فى ترجمته : تهذيب التهذيب ١٩٠/٦ والإصابة ٥١٢٥ ، والجمع بين رجال الصحيحين ٢٨٢] الأعلام للزركلى ٣٠٧/٣ .

(٣) رواه البخارى (٢٥٨/٤ و٢٨١ و٢٨٦) ومسلم (٨٦/٥) ، وأبو داود (٣٢٧٧) ، وأحمد (٦١/٥ – ٦٣) ، والبيهقى ، والنسائى ، والترمذى ، والدارمى ، والطيالسى ، وابن الجارود ، وقال الترمذى : حديث حسن صحيح ، وخرجه الألبانى فى (إرواء الغليل) برقم ٢٠٨٤ ج ١٦٧/٧ .

(٤) رواه أحمد ، والشيخان ، والنسائى عن أسامة بن زيد ، ورواه أحمد ، والشيخان عن عبدالرحمن بن عوف ورواه أبو داود عن ابن عباس وأورده الألبانى فى (صحيح الجامع الصغير) برقم ٦١٦ ج ١٦٧/١ .

(٥) رواه الشيخان عن أبى هريرة وهو فى (فتح البارى) الأحاديث أرقام ٣٠٢٤ و٣٠٢٥ و٣٠٢٦ ، باب (لاتمنوا لقاء العدو) من كتاب (الجهاد والسير) ج ١٨٠/٦ ، ورواه أحمد (٥٢٣/٢) ، كذا رواه أبو داود (كتاب الجهاد) ، والترمذى (الدعوات) ، وابن ماجه (الدعاء) ، والدارمى (السير) .

* وتطرق شيخ الإسلام أحمد بن تيمية – رحمه الله – أيضا إلى إيضاح معنى التوكل فى معرض حديثه عن كتاب (فتوح الغيب) لعبد القادر الجيلانى ، حيث قال (٤٩٠ – ٤٩٣/ ١٠) :

قال (الشيخ عبد القادر) [1] – قدس الله روحه – (افْنَ عن الخلق بحكم الله ، وعن هواك بأمره ، وعن إرادتك بفعله ، فحينئذ يصلح أن تكون وعاء لعلم الله) .

قلت : فحكمه يتناول خلقه وأمره ، أى : افن عن عبادة الخلق .والتوكل عليهم بعبادة الله والتوكل عليه ، فلا تطعهم فى معصية الله تعالى ، ولاتتعلق بهم فى جلب منفعة ولادفع مضرة وأما الفناء عن الهوى بالأمر ، وعن الإرادة بالفعل بأن يكون فعله موافقا للأمر الشرعى لا لهواه ، وأن تكون إرادته لما يخلق تابعة لفعل الله لا لإرادة نفسه ، فالإرادة تارة تتعلق بفعل نفسه وتارة بالمخلوقات .

(فالأول) يكون بالأمر . و(الثانى) لاتكون له إرادة ولابد فى هذا أن يقيد بأن لاتكون له إرادة لم يؤمر بها ، وإلا فإذا أمر بأن يريد من المقدورات شيئا دون شيء فليرد ما أمر بإرادته سواء كان موافقا للقدر أم لا ، وهذا الموضع قد يغلط فيه طائفة من السالكين . والغالب على الصادقين منهم أنهم لم يعرفوا الإرادة الشرعية فى ذلك المعين ، وهم ليس لهم إرادة نفسانية فتركوا إرادتهم لغير المقدور .

قال الشيخ : « فعلامة فنائك عن خلق الله انقطاعك عنهم وعن التردد إليهم مما فى أيديهم » وهو كما قال .

فإذا كان القلب لايرجوهم ، ولا يخافهم ، لم يتردد إليهم لطلب شيء منهم ، وهذا يشبه بمايكون مأمورا به من المشى إليهم لأمرهم بما أمر الله به ، ونهيهم عما

---

(١) هو الشيخ أبو محمد ، محيى الدين الجيلانى أو الكيلانى أو الجيلى : عبد القادر بن موسى بن عبدالله ابن حنكى دوست الحسينى : مؤسس الطريقة القادرية من كبار الزهاد المتصوفين ولد فى جيلان – وراء طبرستان – سنة (٤٧١ هـ/١٠٧٨ م) وانتقل إلى بغداد سنة (٤٨٨ هـ) وبرع فى الوعظ ، وتفقه ، وسمع الحديث واشتهر ، وتصدر للتدريس والإفتاء ببغداد سنة (٥٢٨ هـ) وتوفى بها (٥٦١ هـ/١١٦٦ م) [انظر فى ترجمته : النجوم الزاهرة ٣٧١/٥ ، طبقات الشعرانى ١٠٨/١ – ١١٤ ، وفوات الوفيات ٢/٢ وشذرات الذهب ١٩٨/٤] / الأعلام للزركلى ٤٧/٤ .

نهاهم الله عنه ، كذهاب الرسل ، وأتباع الرسل إلى من يبلغون رسالات الله ، فإن التوكل إنما يصح مع القيام بما أمر به العبد . ليكون عابدا لله متوكلاً عليه ، وإلا فمن توكل عليه ولم يفعل ما أمر به ، فقد يكون ما أضاعه من الأمر أولى مما قام به من التوكل ، أو مثله ، أو دونه ، كما أن من قام بأمر ولم يتوكل عليه ولم يستعن به فلم يقم بالواجب ، بل قد يكون ماتركه من التوكل والاستعانة أولى به مما فعله من الأمر أو مثله أو دونه .

قال الشيخ : (وعلامة فنائك عنك وعن هواك : ترك التكسب ، والتعلق بالسبب فى جلب النفع ودفع الضر ، فلا تتحرك فيك بك ولاتعتمد عليك لك ولاتنصر نفسك ، ولاتذب عنك ، لكن تكل ذلك كله إلى من تولاه أولاً فيتولاه آخرا ، كما كان ذلك موكلاً إليه فى حال كونك مغيبا فى الرحم ، وكونك رضيعا طفلاً فى مهدك) .

قلت : وهذا لأن النفس تهوى وجود ماتحبه وينفعها ، ودفع ماتبغضه ويضرها ، فإذا فنى عن ذاك بالأمر فعل مايحبه الله وترك مايبغضه الله ، فاعتاض بفعل محبوب الله عن محبوبه ، وبترك مايبغضه الله عما يبغضه ، وحينئذ فالنفس لابد لها من جلب المنفعة ودفع المضرة ، فيكون فى ذلك متوكلاً على الله .

و(الشيخ – رحمه الله – ذكر هنا التوكل دون الطاعة ، لأن النفس لابد لها من جلب المنفعة ودفع المضرة ، فإن لم تكن متوكلة على الله فى ذلك واثقة به لم يمكن أن تنصرف عن ذلك فتمتثل الأمر مطلقا ، بل لابد أن تعصى الأمر فى جلب المنفعة ودفع المضرة فلا تصح العبادة لله وطاعة أمره بدون التوكل عليه ، كما أن التوكل عليه لايصح بدون عبادته وطاعته قال – تعالى – ﴿ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ (١) وقال – تعالى – : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ (٢) وقال – تعالى – : ﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ (٣) .

(١) جزء من الآية : ١٢٣ من سورة هود . (٢) حزء من الآيتين : ٢ ، ٣ من سورة الطلاق .
(٣) الايتان ٨ ، ٩ من سورة المزمل .

و(المقصود) أن امتثال الأمر على الإطلاق لايصح بدون التوكل والاستعانة ، ومن كان واثقا بالله أن يجلب له ماينفعه ويدفع عنه مايضره أمكن أن يدع هواه ويطيع أمره ، وإلا فنفسه لاتَدَعُه أن يترك مايقول إنه محتاج فيه إلى غيره .

***

* وكذلك تطرق – رحمه الله – إلى المزيد من إيضاح معنى التوكل فى معرض حديثه عن (أقسام القرآن) حيث قال (٣٢٠ – ١٣/٣٢٤) :

وأما (النازعات غرقا) فهى الملائكة القابضة للأرواح ، وهذا يتضمن الجزاء ، وهو من أعظم المقسم عليه . قال – تعالى – : ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ (١) وقال تعالى : ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ﴾ (٢) ، (٣) هو ولايعين على عبادته إلا هو ، وهذا يقين يعطى الاستعانة والتوكل ، وهو يقين بالقدر الذى لم يقع ، فإن الاستعانة والتوكل إنما يتعلق بالمستقبل .

فأما ماوقع فإنما فيه الصبر والتسليم والرضا ، كما فى حديث عمار بن ياسر (٤) – رضى الله عنه – مرفوعا إلى النبى – صلى الله عليه وسلم – : « **أسألك الرِّضَا بَعْدَ الْقَضَاءِ** » (٥) وقول : « **لاحول ولا قوة إلا بالله** » يوجب الإعانة ، ولهذا سنها النبى – صلى الله عليه وسلم – إذا قال المؤذن : (حى على الصلاة . فيقول المجيب : لاحول ولا قوة إلا بالله ، فإذا قال : حى على الفلاح ، قال المجيب : لا حول ولا قوة إلا بالله) (٦) .

---

(١) الآية : ١١ من سورة السجدة .
(٢) جزء من الآيتين : ٦١ ، ٦٢ من سورة الأنعام .
(٣) هنا موضع إشارة من المحقق إلى سقوط بعض الكلام من الأصل المخطوط .
(٤) سبقت الترجمة
(٥) جزء من الحديث الذى طرفه «**اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق**».. الحديث سبق تخريجه .
(٦) رواه مسلم (٤/٢) ، وأبو داود (٥٢٧) ، والبيهقى (٤٠٩/١) ، وأبو عوانة (٣٣٩/١) ، والسراج فى مسنده (١/٢٣/١) عن عمر بن الخطاب ، وخرجه الألبانى فى (إرواء الغليل) برقم ٢٤٠ج ٢٥٨/ .

وقال المؤمن لصاحبه : ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ (١) ولهذا يؤمر بهذا من يخاف العين على شيء فقوله : ماشاء الله تقديره : ماشاء الله كان ، فلا يأمن ، بل يؤمن بالقدر . ويقول : لاقوة إلا بالله وفى حديث أبى موسى الأشعرى (٢)- رضى الله عنه - المتفق عليه - أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : « **هى كنز من كنوز الجنة** » (٣) و(الكنز) مال مجتمع لايحتاج إلى جمع ، وذلك أنها تتضمن التوكل والافتقار إلى الله - تعالى - .

ومعلوم أنه لايكون شيء إلا بمشيئة الله وقدرته ، وأن الخلق ليس منهم شيء إلا ما أحدثه الله فيهم ، فإذا انقطع طلب القلب للمعونة منهم وطلبها من الله فقد طلبها من خالقها الذى لاياتى بها إلا هو قال - تعالى - : ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ (٤) وقال - تعالى - : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ﴾ (٥) وقال - تعالى - : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٦) وقال - تعالى - : ﴿ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ ﴾ (٧) .

وقال صاحب يس : ﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَـٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (٨) وهذا يأمر الله بالتوكل عليه وحده فى غير موضع . وفى الاثر : من سره أن يكون

---

(١) جزء من الآية : ٣٩ من سورة الكهف .
(٢) سبقت الترجمة .
(٣) سبق تخريجه .
(٤) جزء من الاية : ٢ من سورة فاطر .
(٥) جزء من الآية : ١٠٧ من سورة يونس .
(٦) حزء من الآية : ١٧ من سورة الأنعام .
(٧) جزء من الآية : ٣٨ من سورة الزمر .
(٨) الايتان : ٢٣ ، ٢٤ من سورة يس .

أقوى الناس فليتوكل على الله ، ومن سره أن يكون أغنى الناس فليكن بما فى يد الله أوثق منه بما فى يده ، قال – تعالى – : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴾[1] .

والله – تعالى – أمر بعبادته والتوكل عليه قال – تعالى – : ﴿ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ ﴾[2] وقال – تعالى – : ﴿ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾[3] وقال موسى : ﴿ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ ٢
إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾[4] .

وقال شعيب : ﴿ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾[5] وقال المؤمنون : ﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾[6] وقال – تعالى – : ﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾[7] وقال – تعالى – : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾[8]

فافترق الناس هنا أربعة أصناف .

صنف : لايعبدونه ولايتوكلون عليه ، وهم شرار الخلق .

---

(١) الآية : ٥٨ من سورة الفرقان .
(٢) جزء من الآية : ١٢٣ من سورة هود .
(٣) جزء من الآية : ٣٠ من سورة الرعد .
(٤) جزء من الآية : ٨٤ من سورة يونس .
(٥) جزء من الآية : ٨٨ من سورة هود .
(٦) جزء من الآية : ٤ من سورة الممتحنة .
(٧) الآيتان : ٨ ، ٩ من سورة المزمل .
(٨) جزء من الآية : ٢ والآية : ٣ من سورة الطلاق .

وصنف : يقصدون عبادته بفعل ما أمر ، وترك ما حَظَرَ ، لكن لم يحققوا التوكل والاستعانة ، فيعجزون عن كثير مما يطلبونه ، ويجزعون فى كثير من المصائب .

ثم من هؤلاء من يكذب بالقدر ، ويجعل نفسه هو المبدع لأفعاله ، فهؤلاء فى الحقيقة لايستعينونه ولايطلبون منه صلاح قلوبهم ، ولاتقويمها ولاهدايتها ، وهؤلاء مخذولون كما هم عند الأمة كذلك .

وقوم يؤمنون بالقدر قولاً واعتقادا ، لكن لم تتصف به قلوبهم علما وعملاً ، كما اتصفت بقصد الطهارة والصلاة ، فهم أيضا ضعفاء عاجزون .

وصنف نظر إلى جانب القدرة والمشيئة ، وأن الله - تعالى - هو المعطى والمانع ، والخافض والرافع ، فغلب عليهم التوجه إليه من هذه الجهة والاستعانة به ، والافتقار إليه لطلب مايريدونه ، فهؤلاء يحصل لأحدهم نوع سلطان وقدرة ظاهرة أو باطنة وقهر لعدوه ، بل قتل له ونيل لأغراضه ، لكن لاعاقبة لهم ، فإن العاقبة للتقوى ، بل آخرتهم آخرة رَدِيَّةٌ .

وليس الكلام فى الكفار والظلمة المعرضين عن الله ، فإن هؤلاء دخلوا فى القسم الأول الذين لاعبادة لهم ولا استعانة ، ولكن الكلام فى قوم عندهم توجه إلى الله وتألّهٌ ، ونوع من الخشية والذكر والزهد ، لكن يغلب عليهم التوجه بإرادة أحدهم وذوقه ووجده ، ومايستحليه ويستحبه ، لا بالأمر الشرعى .

خامسا : فى عدم جواز التوكل إلا على الله

* الفتوى الأولى (١٦١ - ١٨٠ / ٨) :

سئل الشيخ الإمام العلامة أبو العباس أحمد بن تيمية - رضى الله عنه - عن قول على [١]- رضى الله عنه - «لا يَرْجُوَنَّ عَبدٌ إلا ربَّه : ولايخافنَّ إلا ذنبه» مامعنى ذلك ؟

فاجـــاب .

الحمد لله : هذا الكلام يؤثر عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب [١]- رضى الله عنه - وهو من أحسن الكلام ، وأبلغه وأتمه ؛ فإن الرجاء يكون للخير ، والخوف يكون من الشر ، والعبد إنما يصيبه الشر بذنوبه ، كما قال - تعالى - : ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ [٢] وقال - تعالى - :﴿ أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ [٣].

فإن كثيرا من الناس يظن أن المراد بالحسنات والسيئات فى هذه الآية الطاعات والمعاصى .

---

(١) سبقت الترجمة

(٢) الآية . ٣٠ من سورة الشورى .

(٣) الآية : ٧٨ وجزء من الآية : ٧٩ من سورة النساء .

ثم « المثبتة للقدر » يحتجون بقوله : ﴿ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ فيعارضهم قوله : ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ .

و« نفاة القدر » يحتجون بهذه الثانية مع غلطهم فى ذلك ، فإن مذهبهم أن العبد يخلق جميع أعماله ، ويعارضهم قوله : ﴿ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ .

وإنما غلط كلا الفريقين ، لما تقدم من ظنهم أن الحسنات والسيئات هى الطاعات والمعاصى ، وإنما الحسنات والسيئات فى هذه الآية : النعم والمصائب ، كما فى قوله – تعالى – ﴿ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ﴾ [1] ﴿ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [2] وقوله – تعالى – : ﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ﴾ [3] وقوله تعالى – : ﴿ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [4] ونحو ذلك . وهذا كثير .

وهذه الآية ذمَّ الله بها المنافقين الذين ينكلون عما أمر الله به من الجهاد وغيره ، فإذا نالهم رزق ونصر وعافية قالوا : ﴿ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ وإن نالهم فقر وذل ومرض قالوا : ﴿ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ﴾ – يامحمد – بسبب الدين الذى أمرتنا به ، كما قال قوم فرعون لموسى .

وذكر الله ذلك عنهم بقوله – تعالى – : ﴿ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ﴾ [5] وكما قال الكفار لرسل عيسى : ﴿ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ﴾ [6] .

---

(١) جزء من الآية : ١٣١ من سورة الأعراف .
(٢) جزء من الآية : ١٦٨ من سورة الأعراف .
(٣) جزء من الآية : ١٢٠ من سورة آل عمران .
(٤) جزء من الآية : ٩ من سورة غافر .
(٥) جزء من الآية : ١٣١ من سورة الأعراف .
(٦) جزء من الآية : ١٨ من سورة يس .

فالكفار والمنافقون إذا أصابتهم المصائب بذنوبهم تطيروا بالمؤمنين ، فبين الله – سبحانه – أن الحسنة من الله ينعم بها عليهم وأن السيئة إنما تصيبهم بذنوبهم ، ولهذا قال – تعالى – : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾[1] فأخبر أنه لايعذب مستغفرا لأن الاستغفار يمحو الذنب الذى هو سبب العذاب ، فيندفع العذاب كما فى سنن أبى داود[2] وابن ماجه[3] عن النبى – صلى الله عليه وسلم – أنه قال: « مَنْ أَكْثَرَ الاسْتِغفَارَ جَعَلَ الله لَهُ مِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجاً ، وَمِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجاً ، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَايَحْتَسِبُ »[4] وقد قال – تعالى –: ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝٢ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ﴾[5]

فبين أن من وَحَّدَهُ واستغفره مُتِّعَ متاعا متابعا حسنا إلى أجل مسمى ، ومن عمل بعد ذلك خيرا زاده من فضله ، وفى الحديث : « يَقُولُ الشَّيْطَانُ : أَهْلَكْتُ النَّاسَ بِالذُّنُوبِ ، وَأَهْلَكُونِي بِلَا إِلَهَ إِلَّا الله ، وَالاسْتِغْفَارِ . فَلَمَّا رَأَيْتُ ذَلِكَ بَثَثْتُ فِيهِمُ الأَهْوَاءَ ، فَهُمْ يُذْنِبُونَ وَلَا يَتُوبُونَ ؛ لِأَنَّهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً »[6] .

---

(١) الآية : ٣٣ من سورة الأنفال

(٢) سبقت الترجمة

(٣) أبو عبدالله ابن ماجه : محمد بن يزيد الربعى القزوينى من أئمة علم الحديث ، صاحب (سنن ابن ماجه) أحد الكتب الستة المعتمدة ، وهو من أهل قزوين ، ورحل إلى البصرة وبغداد و الشام ومصر والحجاز والرى فى طلب الحديث ، عاش فيما بين (٢٠٩ هـ/٨٢٤ م) و(٢٧٣ هـ/٨٨٧ م) [انظر فى ترجمته : وفيات الأعيان ٤٨٤/١ ، وتهذيب التهذيب ٥٣٠/٩ ، وتذكرة الحفاظ ١٨٩/٢] الأعلام للزركلى ج ١٤٤/٧ .

(٤) سبق تخريجه .

(٥) جزء من الآية : ٢ والآية : ٣ من سورة هود .

(٦) سبق تخريجه .

ولهذا قال – تعالى – : ﴿ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ ﴾ [1] أى : فهلّا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ، فحقهم عند مجىء البأس التضرع ، وقال – تعالى – : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾ [2] قال عمر بن عبد العزيز [3] مانزل بلاء إلا بذنب ، ولارفع إلا بتوبة ، ولهذا قال – تعالى – : ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [4]

فنهى المؤمنين عن خوف أولياء الشيطان ، وأمرهم بخوفه ، وخَوْفُه يوجب فعل ما أمر به ، وترك مانهى عنه ، والاستغفار من الذنوب ، وحينئذ يندفع البلاء وينتصر على الأعداء فلهذا قال على [5] –رضى الله عنه–: لايَخَافَنَّ عبد إلا ذنبه . وإن سلط عليه مخلوق فما سلط عليه إلا بذنوبه فليخف الله وليتب من ذنوبه التى ناله بها مانالـه ، كما فى الأثر : « **يَقُولُ الله : أَنَا مَالِكُ الْمُلُوكِ ، قُلُوبُ الْمُلُوكِ وَنَوَاصِيهِمْ بِيَدِى ، مَنْ أَطَاعَنِى جَعَلْتُهُمْ عَلَيْهِ رَحْمَةً ، وَمَنْ عَصَانِى جَعَلْتُهُمْ عَلَيْهِ نِقْمَةً ، فَلَا تَشْتَغِلُوا بِسَبِّ الْمُلُوكِ ، وَأَطِيعُونِى أَعْطِفْ قُلُوبَهُمْ عَلَيْكُمْ** » [6] .

---

(١) جزء من الآيتين : ٤٢ ، ٤٣ من سورة الأنعام .
(٢) الآية : ٧٦ من سورة المؤمنين .
(٣) سبقت الترجمة .
(٤) الآيات : ١٧٣ – ١٧٥ من سورة آل عمران
(٥) سبقت الترجمة .
(٦) رواه الطبرانى فى (الأوسط) وعنه أبو نعيم (٣٨٩/٢) ، وتمام (١/٧٧/٦ من مجموع الظاهرية رقم ٩٥) ، قال الألبانى عن إسناده : هذا إسناد ضعيف جدا ، ونقل قول النسائى عن المقدم بن داود : ليس بثقة ، ونقل قول ابن عدى عن وهب بن راشد : ليس حديثه بالمستقيم ، أحاديثه كلها فيها نظر ، وقال الدارقطنى : متروك ، وقال ابن حبان : لايحل الاحتجاج به بحال ، وقال الهيثمى : وهو متروك . قال الألبانى : وتعصيب الجناية به وحده ليس بجيد ، لما علمت أن فى الطريق إليه المقداد بن داود وهو مثله فى الضعف . [انظر حديث رقم ٦٠٢ ج ٦٨/٢ من (سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيء فى الأمة) للألبانى] .

وأما قوله : « لايَرْجُوَنَّ عَبدٌ إلا ربَّه » فإن الراجى يطلب حصول الخير ودفع الشر ، ولايأتى بالحسنات إلا الله ، ولايُذْهِبُ السيئات إلا الله ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ﴾ (١) ﴿مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ﴾ (٢) والرجاء مقرون بالتوكل ، فإن المتوكل يطلب مارجاه من حصول المنفعة ودفع المضرة ، والتوكل لايجوز إلا على الله – كما قال – تعالى – : ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (٣) وقال : ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (٤) وقال – تعالى – : ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (٥) وقال – تعالى – ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى اللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ (٦) وقال – تعالى – : ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (٧) .

فهؤلاء قالوا : حسبنا الله ، أى : كافينا الله فى دفع البلاء ، وأولئك أمروا أن يقولوا : حسبنا فى جلب النعماء ، فهو – سبحانه – كاف عبده فى إزالة الشر وفى إنالة الخير ، أليس الله بكاف عبده ، ومن توكل على غير الله ورجاه خُذِلَ من جهته وحُرِمَ ، ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ ۖ﴾ (٨)

(١) جزء من الآية : ١٠٧ من سورة يونس .
(٢) جزء من الآية : ٢ من سورة فاطر .
(٣) جزء من الآية : ٢٣ من سورة المائدة .
(٤) جزء من الآية : ١٢ من سورة إبراهيم
(٥) الآية : ١٦٠ من سورة آل عمران .
(٦) الآية : ٥٩ من سورة التوبة.
(٧) الآية : ١٧٣ من سورة آل عمران .
(٨) جزء من الآية : ٤١ من سورة العنكبوت .

﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ [1] ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ [2] ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴾ [3] وقال الخليل : ﴿ فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [4] .

فمن عمل لغير الله رجاء ان ينتفع بما عَمِلَ لَهُ ، كانت صفقته خاسرة ، قال الله - تعالى - : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [5] وقال - تعالى - : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴾ [6] وقال - تعالى - : ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [7] وقال - تعالى - : ﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ [8] كما قيل في تفسيرها . كل عمل باطل إلا ما أريد به وجهه ، فمن عمل لغير الله ورجاه بطل سعيه ، والراجي يكون راجيا تارة بعمل يعمله لمن يرجوه وتارة باعتماد قلبه عليه والتجائه إليه وسؤاله ، فذلك نوع من العبادة له ، وهذا نوع من الاستعانة به ، وقد قال - تعالى - : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [9] وقال : ﴿ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ [10] وقال : ﴿ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ [11]

---

(1) الآيتان : ٨١ ، ٨٢ من سورة مريم .
(2) جزء من الآية : ٣١ من سورة الحج .
(3) الآية : ٢٢ من سورة الإسراء .
(4) جزء من الآية : ١٧ من سورة العنكبوت
(5) الآية : ٣٩ من سورة النور .
(6) جزء من الآية : ١٨ من سورة إبراهيم .
(7) الآية : ٢٣ من سورة الفرقان .
(8) جزء من الآية : ٨٨ من سورة القصص .
(9) الآية : ٥ من سوره الفاتحة .
(10) جزء من الآية : ١٢٣ من سورة هود.
(11) جزء من الآية : ٣٠ من سورة الرعد .

ومما يوضح ذلك أن كل خير ونعمة تنال العبد فإنما هى من الله ، وكل شر ومصيبة تندفع عنه أو تُكْشَفُ عنه فإنما يمنعها الله ، وإنما يكشفها الله ، وإذا جرى ماجرى من أسبابها على يد خلقه ، فالله – سبحانه – هو خالق الأسباب كلها سواء كانت الأسباب حركة حَيٍّ باختياره وقصده ، كما يحدثه – تعالى – بحركة الملائكة والجن والإنس والبهائم ، أو حركة جماد بما جعل الله فيه من الطبع ، أو بقاسر يقسره كحركة الرياح والمياه ونحو ذلك ، فالله خالق ذلك كله ، فإنه لاحول ولا قوة إلا به ، وماشاء كان ومالم يشأ لم يكن فالرجاء يجب أن يكون كله للرب ، والتوكل عليه والدعاء له فإنه إن شاء ذلك ويسره كان وتيسر ، ولو لم يشأ الناس ، وإن لم يشأه ولم ييسره لم يكن وإن شاءه الناس .

وهذا واجب لو كان شيء من الأسباب مستقلاً بالمطلوب ، فإنه لو قدر مستقلاً بالمطلوب وإنما بمشيئة الله وتيسيره – لكان الواجب أن لايرجى إلا الله ولايتوكل إلا عليه ، ولايسأل إلا هو ، ولايستعان إلا به ، ولايستغاث إلا هو ، فله الحمد وإليه المشتكى ، وهو المستعان ، وهو المستغاث ، ولاحول ولا قوة إلا به ، فكيف وليس شيء من الأسباب مستقلاً بمطلوب ، بل لابد من انضمام أسباب أُخَرَ إليه ، ولابد أيضا من صرف الموانع والمعارضات عنه ، حتى يحصل المقصود .

فكل سبب فله شريك وله ضد ، فإن لم يعاونه شريكه ولم يصرف عنه ضده لم يحصل سببه ، فالمطر وحده لاينبت النبات إلا بما ينضم إليه من الهواء والتراب وغير ذلك ، ثم الزرع لايتم حتى تصرف عنه الآفات المفسدة له ، والطعام والشراب لايغذى إلا بما جعل فى البدن من الأعضاء والقُوَى ، ومجموع ذلك لايفيد إن لم تصرف المفسدات ، والمخلوق الذى يعطيك أو ينصرك فهو – مع أن الله يخلق فيه الإرادة والقوة والفعل – فلا يتم مايفعله إلا بأسباب كثيرة خارجة عن قدرته تعاونه على مطلوبه ، ولو كان مَلِكاً مطاعاً ولا بد أن يصرف عن الأسباب المعاونة مايعارضها ويمانعها ، فلا يتم المطلوب إلا بوجود المقتضى وعدم المانع ، وكل سبب معين فإنما هو جزء من المقتضى ، فليس فى الوجود شيء واحد هو مقتضيا ، وإن سمى مقتضيا وسمى سائر مايعينه شروطا ، فهذا نزاع لفظى ، وحينئذ

فيقال : لابد من وجود المقتضى والشروط ، وانتفاء الموانع ، وإما أن يكون فى المخلوقات علة تامة تستلزم معلولها ، فهذا باطل .

ومن عرف هذا حق المعرفة انفتح له باب توحيد الله ، وعلم أنه لايستحق لأن يُدْعَى غيره فضلاً عن أن يُعْبَدَ غيره ، ولايتوكل على غيره ولايرجى غيره ، وهذا مبرهن بالشرع والعقل ، ولافرق فى ذلك بين الأسباب العلوية والسفلية ، وأفعال الملائكة والأنبياء والمؤمنين وشفاعتهم وغير ذلك من الأسباب ، فإن من توكل فى الشفاعة أو الدعاء على ملك أو نبى أو رجل صالح أو نحو ذلك قيل له : هذا أيضا سبب من الأسباب ، فهذا الشافع والداعى لايفعل ذلك إلا بمشيئة الله وقدرته ، بل شفاعة أهل طاعته لاتكون إلا لمن يرضاه ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ ﴾ (1) .

فليس أحد يشفع عنده إلا بإذنه : الإذن القدرى الكونى - فإن شفاعته من جهة أفعال العباد لاتكون إلا بمشيئته وقدرته ، فليس كالمخلوق الذى يشفع إليه شافع تكون شفاعته بغير حَوْلِ المشفوع إليه وقوته ، بل هو - سبحانه - خالق الشفاعة الشافع كسائر التحولات ، ولاحول ولا قوة إلا به ، و« الحول » يتضمن التحول من حال إلى حال بحركة أو إرادة أو غير ذلك فالشافع لا حول له فى الشفاعة ولا غيرها إلا به ، ثم أهل طاعته الذين تقبل شفاعتهم لا يشفعون إلا لمن ارتضى فلا يطلبون منه مالا يحب أن يطلب منه ، بل الملائكة الذين هم ملائكته كما قال فيهم : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾ (2)

والصادر عنهم إما قول وإما عمل ، فالقول لايسبقونه ، بل لايقولون حتى يقول ، ولايشفعون إلا لمن ارتضى ، وعلينا أن نكون معه ومع رسله هكذا ، فلا نقول فى الدين حتى يقول ، ولانتقدم بين يدى الله ورسوله ، ولانعبده إلا بما أمر

(1) جزء من الآية : ٢٨ من سورة الأنبياء .
(2) الآيات : ٢٦ - ٢٨ من سورة الأنبياء

وأعلى من هذا أن لانعمل إلا بما أمر ، فلا تكون أعمالنا إلا واجبة أو مستحبة ، وإذا كان هكذا فى مثل هذه الأسباب فكيف بمن توكل أو رجا أسبابا غير هذه من الكواكب أو غيرها ، أو من أفعال الآدميين من الملوك والرؤساء والأصحاب والأصدقاء والمماليك والأتباع وغير ذلك ؟!

ومما ينبغى أن يُعْلَمَ ماقاله طائفة من العلماء ؛ قالوا : الالتفات إلى الأسباب شرك فى التوحيد . ومحو الأسباب أن تكون أسبابا نقص فى العقل ، والإعراض عن الأسباب بالكلية قَدْحٌ فى الشرع ، وإنما التوكل والرجاء معنى يتألف من موجب التوحيد والعقل والشرع .

وبيان ذلك : أن الالتفات إلى السبب هو اعتماد القلب عليه ورجاؤه والاستناد إليه ، وليس فى المخلوقات مايستحق هذا لأنه ليس مستقلاً ، ولابد له من شركاء وأضداد ، ومع هذا كله فإن لم يسخره مسبب الأسباب لم يُسَخَّرْ ، وهذا مما يبين أن الله رب كل شيء ومليكه ، وأن السموات والأرض ومابينهما والأفلاك وماحوته لها خالق مدبر غيرها ، وذلك أن كل مايصدر عن فلك أو كوكب أو ملك أو غير ذلك فإنك تجده ليس مستقلاً بإحداث شيء من الحوادث ، بل لابد من مشارك ومعاون وهو مع ذلك له معارضات وممانعات .

ومن أعظم ذلك (الفلك الأطلس التاسع) الذى يظن كثير من المتفلسفة الإلهيين والمنجمين وغيرهم أن حركته هى السبب فى حدوث الحوادث كلها ، وإليها انتهى علمهم بأسباب الحوادث ثم هم إما أن يجعلوه معلولاً لواجب الوجود بتوسط عقل أو نفس ، أو بغير توسط ذلك ، وإما أن ينكروا أن يكون معلولاً ويجعلونه واجب الوجود بنفسه ، فقولهم هذا من أعظم الأقوال فسادا ، وإن كانوا مع ذكائهم لايهتدون لذلك ، ولايهتدى كثير من الناس للرد عليهم فى ذلك .

وكل من نظر إلى السماء علم أن حركته ليست هى السبب فى جميع الحركات العلوية ، فإن كثيرا مايقال : إنه بحركته المشرقية يتحرك كل مافيه من الأفلاك من المشرق إلى المغرب ، لكن مع هذا لكل فلك حركة أخرى تخصه - تخالف هذه الحركة - فلك الثوابت ، وفلك الشمس ، والقمر ، وغيرهما من الْخُنَّسِ الجوارى

الكُنَّسِ ، وهذه الحركات المختلفة ليست عن تلك الحركة - تخالفها - ولا أفلاكها معلولة عن ذلك الفلك التاسع .

فلو قدر أن الحوادث تكون بحركة الكواكب ، ومايحدث عن الأشكال المختلفة بالتثليث والتربيع والتسديس والقِرَانِ ، وغير ذلك ، فمن المعلوم أن تلك الأشكال المختلفة ليست معلولة عن حركة التاسع ، بل حركة التاسع جزء السبب ، كما أن حركة كل فلك جزء السبب ، والشكل الفلكى حادث عن مجموع الحركتين ، أو الحركات المختلفة ، فإذا قدر أن التسعة اقترنت فلها سبع حركات بل أكثر من ذلك - عندهم - بحسب الأفلاك الأُخَرِ الزوائد ورجوعها ، وغير ذلك من حركاته ، وإذا كان كذلك فمن جعل حركة التاسع هي السبب فى جميع الحوادث كان قوله مخالفا لما هو معلوم عند هؤلاء الفلاسفة والمنجمين ، وعند كل عاقل ، ثم إذا قدر [أنها سبب] [1] حركة جميع الأفلاك فليست مستقلة بإحداث شيء من السحب والرعود والبروق والأمطار والنبات وأحوال الحيوان والمعدن لأن حركات هذه الأجسام ليست كلها عن حركات الأفلاك بل فيها قوى وأسباب توجب لها حركات أخر ، كما فى كل فلك مبتدأ حركة ليست عن الفلك الآخر .

والحركات كلها : إما (طبيعية) وإما (إرادية) ، وإما (قَسْرِيَّةٌ) ، فالقسرية تابعة للقاسر ، والطبيعية هي التى لا إحساس للمتحرك بها كحركة التراب إلى أسفل ، والإرادية هي التى للمتحرك بها حس كحركة الحيوان ، فما كان من هذه متحركا بطبع فيه أو إرادة ، فمبدأ حركته منه ، وما كان مقسورا فقاسره من المخلوقات إنما يقسره لما فيه من الاستعداد لقبول قسره ، وذلك معنى ليس من القاسر ، فحركات الأفلاك إذا اجتمعت ليست مستقلة بتحريك هذه الأجسام ، وإن جاز أن تكون جزءاً للسبب كما نشهد أن الشمس جزء سبب فى نمو بعض الأجسام ورطوبتها ويبسها ونحو ذلك . ثم بتقدير أن تكون أسبابا فلها موانع ومعارضات ، إذ ما من سبب يقدر إلا وله مانع إرادى أو طبيعى ، أو غير ذلك :كالدعاء والصدقة والأعمال الصالحة ، فإنها من أعظم الأسباب فى دفع

---

(١) مابين القوسين من إضافة المحقق لاستقامة السياق .

البلاء النازل من السماء ، ولهذا أمرنا بذلك عند الكسوف وغيره من الآيات السماوية التي تكون سببا للعذاب ، كما قال النبي - صلى الله عليه وسلم - : « **إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لايَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ ، وَلَكِنَّهُما آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللهِ يُخَوِّفُ بِهِمَا عِبَادَهُ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَافْزَعُوا إِلَى الصَّلَاةِ** » [1] وأمر - صلى الله عليه وسلم - عند الكسوف بالصلاة والذكر والاستغفار والصدقة والعتاقة .

وإذا عرف أن كل واحد من الموجودات المشهودة ، إذا نظرت إليها - واحدا واحدا - من الفلك التاسع وغيره وجدته غير مستقل بإحداث شيء أصلاً . بل لابد للحوادث من أسباب أُخَرَ ، وإن كان هو جزء سبب ، ولها معارضات أُخَرُ علم بذلك أنه ليس فى هذه الأمور مايجوز أن يقال : هو المحدث للحوادث المشهودة ، فضلاً عن أن يقال : هو المبدع للأجسام المتحركة حركة تخالف حركته ، وتدفع موجبها ؛ فإن الشيء لايوجب مايضاده ويخالفه ، وإذا كان فى الأجسام المتحركة مايخالف مقتضاه موجب الفلك - التاسع ومقتضاه - ويضاده امتنع أن يكون أحدهما علة الآخر ؛ لأن المعلول لايضاد علته ، كما لايجوز أن يكون فاعلاً لها كما أن الشيء لايكون ضدا لنفسه ، ولا فاعلاً لنفسه ، فإن مضادته لنفسه توجب أن يكون وجوده تابعا لوجوده ، فيكون موجودا معدوما ، وفعله لنفسه مع كون العلة متقدمة على المعلول يوجب أن تكون نفسه موجودة معدومة .

ومن المعلوم أن (الفلك التاسع) إذا لم تكن الحوادث والحركات التى عن قوى الأجسام منه ، وإنما منه حركة عَرَضِيَّةٌ لها ، فأن لاتكون نفس الأجسام وقواها منه أولى وأحرى ، ويعلم بذلك أن المحرك للأفلاك وغيرها من الأجسام المشهودة والمبدع لهذه الأجسام بسبب آخر رَبٌّ غيرها ، هو الذى أبدعها على صورها المختلفة وحركها بالحركات المختلفة ، وهو المطلوب .

---

(١) رواه البخارى والنسائى عن أبى بكرة ، ورواه الشيخان والنسائى وابن ماجه عن أبى مسعود ورواه الشيخان والنسائى عن ابن عمر ، والشيخان عن المغيرة ، وأورده الألبانى فى (صحيح الجامع الصغير) برقم ١٦٤٤ ج ٣٣٨/١ .

ثم هذه الكواكب إذا كانت جزء السبب من بعض الحوادث فإنما تكون جزء السبب فى حال دون حال ؛ فإنها فى حال ظهورها على وجه الأرض يظهر نورها وأثرها ، فإذا أَفَلَتْ انقطع نورها وأثرها فلا تبقى حينئذ سببا ولاجزءا من السبب ، ولهذا قال الخليل – صلى الله عليه وسلم ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾ (١) فإنها فى حال أفولها قد انقطع أثرها عنا بالكلية ، فلم تبق شبهة يستند إليها المتعلق بها ، والرب الذى يُدْعَى وَيُسْأَل ويُرْجى وُيَتوكَّلُ عليه لابد أن يكون قيوما يقيم العبد فى جميع الأوقات والأحوال ، كما قال : ﴿ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ (٢) وقال : ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ ﴾ (٣) فهذا وغيره من أنواع النظر والاعتبار يوجب أن العبد لايرجو إلا الله ولايتوكل إلا عليه .

وأما كونه لايخاف إلا ذنبه فلما علم من أنه لاتصيبه مصيبة إلا بذنوبه ، وهذا يعلم بآيات الآفاق والأنفس ، وبما أخبر فى كتابه ، كما هو مبسوط فى غير هذا الموضع ، وبيَّنّا سرَّ ذلك بما لايحتمله هذا الموضع .

وهذا تحقيق ماثبت فى الحديث الصحيح الإلهى حديث أبى ذر (٤) عن النبى – صلى الله عليه وسلم – عن ربه أنه قال : « **يَاعِبَادِى : إِنَّمَا هِىَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا ، فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً فَلْيَحْمَدِ الله ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَٰلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ** » (٥) فبين أن كل مايجده العبد من الخير فليحمد الله عليه ، فإن الله هو الذى أنعم به ، وأن مايجده من الشر فلا يلومن فيه إلا نفسه .

وفى الصحيح أيضا عن النبى – صلى الله عليه وسلم – أنه قال : « **سَيِّدُ الاسْتِغْفَارِ أَنْ يَقُولَ الْعَبْدُ : اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّى لَا إِلَٰهِ إلا أَنْتَ ، خَلَقْتَنِى وَأَنَا عَبْدُكَ ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَىَّ ، وَأَبُوءُ بِذَنْبِى فَاغْفِرْ لِى ، إِنَّهُ لَايَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ** » (٥) فقوله : « **أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَىَّ** » اعتراف وإقرار بالنعمة ،

(١) جزء من الآية : ٧٦ من سورة الأنعام .
(٢) جزء من الآية : ٥٨ من سورة الفرقان .
(٣) جزء من الآية : ٢٥٥ من سورة البقرة .
(٤) سبقت الترجمة .
(٥) سبق تخريجه .

وقوله : « وَأَبُوءُ بِذَنْبِي » إقرار بالذنب ، ولهذا قال من قال من السلف : إنى أصبح بين نعمة وذنب ، فأريد أن أحدث للنعمة شكراً ، وللذنب استغفارا ، لكن الشكر يكون بعد النعمة ، والتوكل والرجاء يكون قبل النعمة ، كما قال الخليل ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ﴾ [1] وفى خطبة النبى – صلى الله عليه وسلم : « الحَمْدُ لله نَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ ، وَنَعُوذُ بالله مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا » [2] فجمع بين حمده والاستعانة به والاستغفار له ، فقد تبين أن الالتفات إلى الأسباب شِرْكٌ فى التوحيد ، وهو ظلم وجهل ، وهذه حال من دعا غير الله وتوكل عليه .

وأما قولهم : محو الأسباب أن تكون أسبابا : نقص فى العقل ، فهو كذلك وهو طعن فى الشرع أيضا : فإن كثيرا من أهل الكلام أنكروا الأسباب بالكلية وجعلوا وجودها كعدمها ، كما أن أولئك الطبعيين جعلوها عللاً مقتضية ، وكما أن المعتزلة فَرَّقوا بين أفعال الحيوان وغيرها ، والأقوال الثلاثة باطلة ، فإن الله يقول : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ﴾ [3] وقال – تعالى – : ﴿ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [4] وقال – تعالى – : ﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [5] وقال – تعالى – : ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ﴾ [6] وأمثال ذلك فمن قال : يفعل عندها لابها فقد خالف لفظ القرآن مع أن الحس والعقل يشهد أنها أسباب ، ويعلم الفرق بين

---

(١) جزء من الآية : ١٧ من سورة العنكبوت .

(٢) رواه الشافعى والبيهقى فى (المعرفة) عن ابن عباس ، وهو فى (كنز العمال) برقم ٤٣٦٢١ ج ١٥ / ٩٤٢ وطرفه : ﴿ الحمد لله نستعينه ونستغفره ونستهديه ونستنصره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ﴾ الحديث .

(٣) جزء من الآية : ٥٧ من سورة الأعراف .

(٤) جزء من الآية : ١٦٤ من سورة البقرة .

(٥) جزء من الآية : ١٦ من سورة المائدة .

(٦) جزء من الآية : ٢٦ من سورة البقرة .

اختصاص أحدهما بقوة ليست فى الآخر ، وبين الخبز والحصى فى أن أحدهما يحصل به الغذاء دون الآخر .

وأما قولهم : الإعراض عن الأسباب بالكلية قدح فى الشرع ، بل هو أيضا قدح فى العقل ، فإن أفعال العباد من أقوى الأسباب لِمَا نِيطَ بها ، فمن جعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض ، أو يجعل المتقين كالفجار ، فهومن أعظم الناس جهلاً وأشدهم كفراً ، بل ما أمر الله به من العبادات والدعوات والعلوم والأعمال من أعظم الأسباب ، فيما نيط بها من العبادات ، وكذلك مانهى عنه من الكفر والفسوق والعصيان هى من أعظم الأسباب لما علق بها من الشقاوات .

ومع هذا فقد قال خير الخلق : « **إِنَّهُ لَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ مِنْكُمُ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ** » قَالُوا : وَلَا أَنْتَ يَارَسُولَ الله ؟ قَالَ : « **وَلَا أَنَا ، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِى الله بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ** » [1] ولما قال لهم . « **مَامِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ عُلِمَ مَقْعَدُهُ مِنَ الْجَنَّةِ وَمَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ** » قالوا : يارسول الله ! أَفَلَا نَتَّكِلُ عَلَى الْكِتَابِ وَنَدَعُ الْعَمَلَ ؟ قال : « **لَا ! اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ له ، أما مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَسَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ فَسَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ** » [1] .

وكذلك الدعاء والتوكل من أعظم الأسباب لما جعله الله سببا له ، فمن قال : ماقُدِّرَ لى فهو يحصل لى دَعَوْتُ أو لم أَدْعُ ، وتوكلتُ أو لم أتوكل ، فهو بمنزلة من يقول : ماقسم لى من السعادة والشقاوة فهو يحصل لى آمنتُ أو لم أؤمن ، وأطعت أم عصيت ، ومعلوم أن هذا ضلال وكفر ، وإن كان الأول ليس مثل هذا فى الضلال ، إذ ليس تعليق المقاصد بالدعاء والتوكل كتعليق سعادة الآخرة بالإيمان ، لكن لاريب أن ماجعل الله الدعاء سببا له فهو بمنزلة ماجعل العمل الصالح سببا له ، وهو قادر على أن يفعله - سبحانه - بدون هذا السبب وقد يفعله بسبب آخر .

وكذلك من ترك الأسباب المشروعة المأمور بها أمر إيجاب أو أمر استحباب من جلب المنافع أو دفع المضار قادح فى الشرع خارج عن العقل ، ومن هنا غلطوا فى

---

(١) سبق تخريجه .

ترك الأسباب المأمور بها ، وظنوا أن هذا من تمام التوكل ، والتوكل مقرون بالعبادة فى قوله ﴿ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ (١) والعبادة : فعل المأمور ، فمن ترك العبادة المأمور بها وتوكل لم يكن أحسن حالاً ممن عبده ولم يتوكل عليه بل كلاهما عاص لله تارك لبعض ما أمر به .

والتوكل يتناول التوكل عليه ليعينه على فعل ما أمر ، والتوكل عليه ليعطيه مالايقدر العبد عليه ، فالاستعانة تكون على الأعمال ، وأما التوكل فأعم من ذلك ، ويكون التوكل عليه لجلب المنفعة ودفع المضرة ، قال – تعالى – : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾ (٢) وقال – تعالى – : ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ (٣) .

فمن لم يفعل ماأمر به لم يكن مستعينا بالله على ذلك ، فيكون قد ترك العبادة والاستعانة عليها بترك التوكل فى هذا الموضع أيضا ، وآخر يتوكل بلا فعل مأمور ، وهذا هو العجز المذموم ، كما فى سنن أبى داود (٤) أن رجلين اختصما إلى النبى – صلى الله عليه وسلم – فحكم على أحدهما فقال المقضى عليه : حسبى الله ونعم الوكيل ، فقال النبى – صلى الله عليه وسلم – : « **إِنَّ اللهَ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ ، وَلكِنْ عَلَيْكَ بِالْكَيَسِ ، فَإِنْ غَلَبَكَ أَمْرٌ فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ** » (٦١) وفى صحيح مسلم (٦) عن النبى – صلى الله عليه وسلم – أنه قال : « **الْمُؤْمِنُ الْقَوِىُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِى كُلٍّ خَيْرٌ ، احْرِصْ عَلَى مَايَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجِزَنَّ ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَىْءٌ فَلَا تَقُلْ : لَوْ أَنِّى فَعَلْتُ كَذَا لَكَانَ كَذَا ، وَلَكِنْ قُلْ : قَدَّرَ اللهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ : فَإِنَّ (لَوْ) تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ** » (٦) .

---

(١) جزء من الآية : ١٢٣ من سورة هود

(٢) الآية : ٥٩من سورة التوبة .

(٣) الآية : ١٧٣ من سورة آل عمران .

(٤) سبقت الترجمة .

(٥) سبق تخريجه .

(٦) سبقت الترجمة .

فإن الإنسان ليس مأمورا أن ينظر إلى القدر عند مايؤمر به من الأفعال ولكن عندما يجرى عليه من المصائب التى لاحيلة له فى دفعها ، فما أصابك بفعل الآدميين أو بغير فعلهم اصبر عليه وارضَ وسَلِّمْ ، قال – تعالى – : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ (١) قال بعض السلف – إما ابن مسعود (٢) – وإما علقمة (٢) : هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم .

ولهذا قال آدم لموسى : أتلومنى على أمر قدره الله علىّ قبل أن أخلق بأربعين سنة ؟! فَحَجَّ آدمُ موسى ، لأن موسى قال له : لماذا أخرجتنا ونَفْسَكَ من الجنة ؟! (٣) فلامه على المصيبة التى حصلت بسبب فعله ، لا لاجل كونها ذنبا ، ولهذا احتج عليه آدم بالقدر ، وأما كُونه لأجل الذنب كما يظنه طوائف الناس فليس مرادا بالحديث ، لأن آدم – عليه السلام – كان قد تاب من الذنب ، والتائب من الذنب كمن لاذنب له ، ولايجوز لوم التائب باتفاق الناس .

و(أيضا) فإن آدم احتج بالقدر ، وليس لأحد أن يحتج بالقدر على الذنب باتفاق المسلمين ، وسائر العقلاء ؛ فإن هذا لو كان مقبولاً لأمكن كل أحد أن يفعل مايخطر له من قتل النفوس وأخذ الأموال وسائر أنواع الفساد فى الأرض ويحتج بالقدر . ونفس المحتج بالقدر إذا اعتدى عليه واحتج المعتدى بالقدر لم يقبل منه ، بل يتناقض ، وتناقض القول يدل على فساده ، فالاحتجاج بالقدر معلوم الفساد فى بَدَائِهِ العقول .

---

(١) جزء من الآية : ١١ من سورة التغابن .

(٢) سبقت الترجمة .

(٣) فى الحديث الصحيح الذى رواه الشيخان ، وأحمد ، وأبو داود ، والترمذى ، وابن ماجه عن أبى هريرة : « احتج آدمُ موسى ، فقال موسى : أنت آدم الذى خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأسْجَدَ لك ملائكته وأسكنك جنته ، أخرجت الناس من الجنة بذنب وأشقيتهم . قال آدم : ياموسى أنت الذى اصطفاك الله برسالاته وبكلامه ، وأنزل عليك التوراة ، أتلومنى على أمر كتبه الله علىّ قبل أن يخلقنى ؟! فحج آدمُ موسى » أورده الألبانى فى (صحيح الجامع الصغير) برقم ١٨٤ ج ١ /٩٨ .

ومن ظن أن الإيمان بالقدر أن الله خالق أفعال العباد كما يظنه المباحية المشركية ، الذين يقرون بالقدر دون الأمر ، والقدرية المجوسية الذين يقرون بالأمر دون القدر ، أو ظن أن التكليف مع ذلك غير معقول ، ولكن الشارع أطيع فيه لمحض المشيئة الإلهية ، وأن الله يفعل ، وجعل ذلك حجة له فى الأفعال لم يتضمن أسبابا مناسبة للأمر والنهى ، بل أنكر ما اشتملت عليه الشريعة من المصالح والمحاسن والمقاصد التى للعباد فى المعاش والمعاد ، وجعل ذلك الشرع مجرد إضافة من غير أن يكون من العلة والمعلول مناسبة وملاءمة ، وأنكر أن تكون الأفعال على وجوه لأجلها كانت حسنة مأمورا بها ، وكانت سيئة منهيا عنها ، احتجاجا على ذلك بالقدر ، وأنه مع كون الرب هو الخالق يمتنع هذا كله فهو مخطىء ضال يعلم فساد قوله بالضرورة ، وبما اتفق عليه العقلاء مع دلالة الكتاب والسنة والإجماع على فساد قوله .

فإن عامة بنى آدم يؤمنون بالقدر ، ويقولون : إنه لابد من عقوبة المعتدين حتى المجانين والبهائم ، يؤدبون لكف عدوانهم ، وإن كانت أفعالهم مقدرة وبِعَفْوِ كُمَّلِ الآدميين عن عدوانهم ، وإن كانت أفعالهم مقدرة فالعبد عليه أن يصبر ، وينبغى له أن يرضى بما قدر من المصائب ويستغفر من الذنوب والمعائب ، ولايحتج لها بالقدر ، ويشكر ماقدر الله له من النعم والمواهب ، فيجمع بين الشكر والصبر والاستغفار والإيمان بالقدر والشرع ، والله أعلم .

فهرس الأحاديث

الحديث | الصفحة

(أ)

فهرس الأعلام

(أ)

فهرس الموضوعات

رقم الإيداع ٩٧٢٦ لسنة ١٩٩٢
الترقيم الدولى
I.S.B.N
977 — 5083 — 71 — 0



ت : ٩٣٢٧٠٦

الجمع التصويرى . **غرافيكس** للتجهيزات الفنية ت : ٢١٢٩١٨٤



هذا الكتاب

قال الله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾

[الآية ٣ من سورة الطلاق]

وقال رسول الله ﷺ : « لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير ؛ تغدو خماصاً وتعود بطانا » رواه الإمام أحمد ، والنسائى والترمذى وقال: حسن صحيح.

من هذا يعلم أن التوكل على الله من أعظم الأسباب التى يستجلب بها الرزق ، فقد قرأ النبى ﷺ الآية السابقة على أبى ذر الغفارى – رضى الله عنه – وقال له : « لو أن الناس كلهم أخذوا بها لكفتهم » .

وحقيقة التوكل على الله : هو صدق اعتماد القلب على الله – عز وجل – فى استجلاب المصالح ودفع المضار من أمور الدنيا والآخرة كلها ، وتحقيق الإيمان بأنه لا يعطى ولا يمنع ، ولا يضر ولا ينفع سواه . قال الحسن البصرى : « إن توكل العبد على ربه أن يعلم أن الله هو ثقته » .

وإن الإمام ابن تيمية غنى عن التعريف ، وهو إذ يتناول موضوع (التوكل على الله) فى فتاويه فإنه يوفيه حقه بما لا يدع مجالاً لمستزيد .

والدار المصرية اللبنانية إذ تقدم للمسلمين فى كل مكان هذا السفر الجليل فإنما ترجو الله تعالى أن ينفع به فى توضيح هذا الجانب الإيمانى الجليل ، والله ولى التوفيق .

الناشر

